تقرير الأبحاث

الشيخ ياسر الحبيب

صلاح الدين الأيوبي

القصة التي لم تروَ

صلاح الدين الأيّوبي
القصة التي لم تُروَ

لجنة حفظ ونشر آثار الشيخ ياسر الحبيب

تأسست: صفر الأحزان ١٤٤٥هـ

Committee for Preserving and Publishing the

Works of Sheikh Yasser al-Habib

📚 هوية الكتاب

———————————————————————

العنوان :صلاح الدين الأيوبي

بيانات الإعداد والإنتاج:

الجهة المنتجة: لجنة حفظ ونشر آثار الشيخ ياسر الحبيب
الإخراج الفني: لجنة حفظ ونشر آثار الشيخ ياسر الحبيب
تصنيف الكتاب: تاريخي
الطبعة: الأولى

المواصفات الفنية للنسخة:

نوع النسخة: إلكترونية
حجم الصفحة: A5
عدد الصفحات: [١٤٦] صفحة
تاريخ الإنتاج: ذو الحجة ١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٦ م

⚠️ جميع الحقوق محفوظة
حقوق الطبع والنشر محفوظة للجنة حفظ ونشر آثار الشيخ ياسر الحبيب.

🌐 المنصة الرسمية المعتمدة:

لـمتابـعة جـديـد الإصـدارات والآثـار، تـفضلوا بـزيـارة صـفحة الـلجنة الـوحـيدة والرسمية على التليجرام:

📣 **@turathalhabib**

———————————————————————

صلاح الدّين الأيـوبي

القــصة التــي لــم تُـروَ

تقريرًا لأبحاث

الشيخ ياسر الحبيب

الطبعة الأولى | ١٤٤٧هـ |٢٠٢٦م

لجنة حفظ ونشر آثار الشيخ ياسر الحبيب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

وعلى آله آل الله واللعنة على أعدائهم أعداء الله

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات..... ٨

تقديـــم..... ١٣

الـسّفاح صلاح الدين الأيّـوبي..... ١٨

منهجية التقييم المتوازن للشخصيات التاريخية..... ١٩

رصد التناقض المعياري في الفكر السلفي المعاصر..... ٢٤

بين نصر الله، وصلاح الدين!..... ٢٩

الهوية المذهبية لمصر قبل العهد الأيوبي..... ٤٠

مثالٌ لتقريب الحال!..... ٤٧

حال المذاهب الأربعة في الدولة الفاطمية..... ٤٩

الانقلاب الأيوبي وتأسيس سياسة الاضطهاد الطائفي..... ٥٢

تلاعب الدولة الفاطمية بالأحكام الشيعية..... ٥٤

تصوير المقريزي للإنقلاب الأيوبي الدموي..... ٦٠

التصفية الطائفية التي قام بها صلاح الدين الأيوبي..... ٦٢

دلالة تسمية باب الصعايدة في الأزهر..... ٦٣

أساليب صلاح الدين الوحشية في التعذيب..... ٦٤

فهرس المحتويات

صـلاح دينـهم.. خمّـار نـذل متجـبر..... ٦٩

السياق التاريخي لظهور صلاح الدين الأيوبي في مصر..... ٧٢

السيرة الشخصية لصلاح الدين ومعاقرتة الخمور..... ٧٦

كيف وُلّي صلاح الدين أمور مصر؟..... ٨١

الغدر بالخلافة الفاطمية والتنكيل بأسرتها..... ٨٣

كيف غدر صلاح الدين بالعاضد؟..... ٨٤

مصادرة حرية التعبير وإعدام الشعراء..... ٨٨

صـلاح الـدين الأيوبـي والـخيـانـة العـظـمى..... ٩٤

نكبة الفاطميين واستباحة القصور والدور..... ٩٥

إجراءات الفناء العرقي في المنقول التاريخي!..... ٩٦

النهب الاقتصادي للممتلكات والاستعباد غير الشرعي..... ٩٨

تجريد الدور والهتك الممنهج للحرمات..... ٩٩

ازدواجية المعايير في التقييم التاريخي..... ١٠٤

وحدة المعيار الأخلاقي في الفكر الشيعي..... ١٠٥

السياسة الاقتصادية وتجويع الشعب المصري..... ١٠٨

الخيانة العظمى والتـحالف مع الصليبيين ضد نور الدين زنكي..... ١١٢

صلاح الدين الأيوبي.. القصة التي لم ترَ

دوافع التمرد وسياقات التراجع العسكري..... ١١٢

التوثيق التاريخي لواقعة التراجع من المصادر البكرية..... ١١٩

الهوية التاريخية للأزهر..... ١٢٣

دعوة لاستفتاءٍ الشعبي..... ١٢٤

مقومات التحصين العقدي بين المذهبين..... ١٢٦

المواقف الموثقة لخيانة صلاح الدين لنور الدين زنكي..... ١٣٠

ما رواه ابن العديم في تاريخه..... ١٣٠

ما وثقه ابن الأثير في "الكامل في التاريخ"..... ١٣٥

ما نقله أبو شامة المقدسي في "الروضتين"..... ١٣٧

مفاوضات صلح الرملة والتنازلات الجغرافية للصليبيين..... ١٣٨

التشرذم الأيّوبي وتوطين اليهود في بيت المقدس..... ١٤١

خاتمة..... ١٤٣

تقدیـــم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد المصطفى وآله الأطهار الميامين، واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

كم من أساطير نسجها التاريخ المزيف، وظلّت جاثمة على وعي الأمة لقرون الطوال، يحرسُها التقديس الأعمى وتتوارثها الأجيال كمسلّمات لا تقبل النقاش! لكن الحقيقة - وإن طال طمرها تحت ركام التزوير - لا بد أن تشرق يومًا لتهدم عروش الأوهام.

بين يديك أيها القارئ الكريم وثيقة تفتيشية خطيرة تقتحم حقل ألغام تاريخي، وتزيح الستار عن "القصة التي لم تُرْوَ".

تضع «لجنة حفظ ونشر آثار الشيخ ياسر الحبيب» هذا الأثر العلمي الراصد لثلاث محاضرات وبحوث استثنائية،

فجّر بها سماحة الشيخ ياسر الحبيب زلزالًا فكريًا مدويًا عبر شاشات القنوات الاتحادية (فدك وصوت العترة عليهم السلام)، مخلخلًا بها قناعاتٍ ظنّ الكثيرون أنها راسخة لا تتزعزع.

هذا الكتاب يجرّد يوسف بن أيوب- صلاح الدين الأيوبي- من هالات البطولات المصطنعة، ويعيد رصيد مواقفه إلى ميزان النقد الصارم المستند حصرًا إلى أمهات المصادر التاريخية العتيقة. وقد جاء هذا الهجوم المعرفي المرتب عبر ثلاث أوراق بحثية كبرى:

الورقة الأولى: «السفاح صلاح الدين الأيوبي» (التي ألقاها سماحته بتاريخ ٢٤-٥-٢٠١٣م).

الورقة الثانية: «صلاح دينهم.. خمار نذل متجبر» (التي ألقاها سماحته بتاريخ ٣١-٥-٢٠١٣م).

الورقة الثالثة: «صلاح الدين الأيوبي والخيانة العظمى» (التي ألقاها سماحته بتاريخ ٧-٦-٢٠١٣م).

وقد ارتأت اللجنة تقريرها لما لها من أهمية قصوى في كسر أغلال التبعية الفكرية، وإعادة بناء الوعي التاريخي

تقديم

للأمة على أسس متينة من التحقيق العلمي المنصف الذي لا يحابي أحدًا على حساب الحقيقة الشرعية والتاريخية.

والحمد لله رب العالمين..

لجنة حفظ ونشر آثار الشيخ ياسر الحبيب

ذو الحجة ١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٦ م

الـسّفاح صلاح الدين
الأيّـوبي

منهجية التقييم المتوازن للشخصيات التاريخية

تنطلق ورقتنا البحثية من القاعدة المنهجية التي أسسنا لها، وذكرناها، وأصلناها، وأكدنا عليها في غير ما مرة؛ وهي ضرورة التزام الإنسان المؤمن بالتوازن والاعتدال في نظره إلى الشخصيات وتقييمه لها.

وبعبارة أخرى: إنه لا يصح عقلًا ولا شرعًا أن ينظر المرء إلى إيجابية واحدة من إيجابيات شخصية معينة، فيجعلها تطغى على سائر السلبيات الأخرى، وإن كانت تلك السلبيات قد بلغت مبلغ نواقض الدين وخوارم العدالة والمروءة. فمن غير المقبول أن يؤدي هذا الطغيان، وانعدام الميزان الموضوعي، إلى تولي هذه الشخصية أو احترامها وتبجيلها؛

إذ يعد هذا المسلك نوعًا من أنواع الاختلال الفادح في التقييم.

وكذلك الأمر في المقابل؛ إذ لا يصح أن تطغى سلبية واحدة-مع التدقيق الجيد في هذا الشرط والقيد: ما لم تكن تلك السلبية من نواقض الدين وخوارم العدالة والمروءة-فلا يجوز تهويل الأمور وتضخيمها لتطغى على سائر الإيجابيات الأخرى، فإن هذا المنحى مجافٍ للصواب أيضًا.

إن المشكلة المحورية التي تواجهها هذه الأمة تكمن في طريقة تعاطيها وتقييمها للشخصيات. ولا أقصد بالأمة هنا طائفة المخالفين فحسب، بل أضم إليهم بطبيعة الحال مجتمعنا نحن المسلمين؛ فإننا جميعًا نكاد نقع في هذا الخلل المنهجي. حيث ينظر البعض إلى زاوية إيجابية واحدة في شخصية ما، ويتجاهل في المقابل كل الزوايا السلبية الأخرى، حتى وإن كانت ناقضة للدين، وهادمة للعدالة، وخارمة للمروءة؛ فنراهم يتناسونها ويتجاهلونها، ويعاندون أو يصرون على تولي تلك الشخصية واحترامها دون التفات إلى تلك الجوانب المتعددة.

وللإنصاف، فإن هذا المرض قد ابتليت به طائفة أهل الخلاف أكثر من غيرها؛ ولكن من الإنصاف أيضًا القول إن هذا الداء بدأ يتفشى شيئًا فشيئًا في أوساطنا في الأزمنة المتأخرة، ويتسلل إلينا مع الأسف الشديد.

ومن ثم، فإن واجبنا العلمي والشرعي يفرض علينا إعادة الأمة إلى هذا التوازن، وأن تنظر إلى الشخصيات بمنظار إسلامي متوازن لا يطغى فيه جانب على آخر. وبعبارة واضحة: ابحث عن سائر جوانب الشخصية التي تريد تحديد موقفك منها، وانظر إلى إيجابياتها وسلبياتها معًا، ثم اجمع هذا المجموع كله، وبعد عملية الكسر والانكسار والموازنة، حدد موقفك النهائي منها.

وكالعهد بنا في تقديم النماذج التطبيقية، نتطرق إلى شخصية صلاح الدين الأيوبي؛ هذه الشخصية التي يغالي فيها أهل الخلاف كثيرًا.

ولعل من أهم عوامل مغالاتهم فيها هو افتقادهم للأمثولة والنماذج الخيرة؛ إذ هم أمة تتابعت عليها الهزائم، وطائفة وسمها العار والشنار، وتفتقر إلى شخصيات حقيقية تتبوأ القمة.

لذلك، تجدهم يفتشون عن كل ما يمكن أن يرسم شخصية مثالية في الأذهان، فيغالون في تمجيدها كثيرًا، ولو كان ذلك على حساب الدين والحق والعدل، وعلى حساب التوازن المنهجي الذي قدمناه.

إن صلاح الدين يمثل إحدى تلك الشخصيات التي تفتش الفرقة البكرية عبرها عن مجدها الضائع ومكانتها المفقودة؛ فصنعوا منه بطلًا أسطوريًا طرد الصليبيين وحرر القدس، ووصفوه بالسلطان العادل والملك الناصر الذي لا مثيل له، وغدوا يتغنون باسمه وسيرته كأمثولة عليا.

في حين أنك لو فتشت بحق في سيرة هذا الشخص التاريخية، لوجدته سفاحًا مجرمًا رخيصًا، غارقًا في الدنيويات، شاربًا للخمر، ومتلذذًا بالمحرمات.

أما الأسطورة المروجة عنه بأنه كان المحرر والفاتح، فليست في واقع الحال إلا أسطورة متخيلة؛ إذ إن الرجل إنما أخذ القدس وسلم في المقابل أراضي المسلمين في فلسطين وغيرها للصليبيين، بل سلم فلسطين كلها للصليبيين مستثنيًا القدس فقط، ثم ما برح الزمان حتى سلمت القدس نفسها مجددًا إلى الصليبيين بسبب

المعادلات والتركيبات الممالكية والسلطانية التي صاغها صلاح الدين في نظام حكمه.

ولن نتطرق في ورقتنا هذه إلى حقيقة ما يُزعم أنه فتح وانتصار حققه صلاح الدين، فهذا أمر نرجئه إلى الفصل القادم.. وإنما سأركز هنا حصرًا على جانب واحد يتعلق بموقفنا وموقف مخالفينا من هذه الشخصية، ومقارنتها بشخصية مثيلة لها في عصرنا الحاضر، وهي شخصية حسن نصر الله(١)، الذي يمكن وصفه بـ "صلاح دين عصرنا".

ونحن هنا نطالب أهل الخلاف بأن يطبقوا معاييرهم التي اعتمدوها مع "صلاح دين عصرهم" على "صلاح دينهم الأول".

وبعبارة أخرى: إن المعايير التي أسقطوها الآن على صلاح الدين الثاني (حسن نصر الله) نطالبهم بتطبيقها ذاتها على صلاح الدين الأول؛ فإذا كانت تلك المعايير قد قادتهم إلى رفض صلاح الدين الثاني، وإهانته، والبراءة منه، واستحقاره وذمه، فيفترض بالمعايير ذاتها أن توصلهم إلى النتيجة

---

١ حسن عبدالكريم نصر الله (١٩٦٠–٢٠٢٤): زعيم ما يسمى بحزب الله السابق، وأحد أبرز أدوات علي خامنئي وأبواقه في المنطقة.

نفسها المتعلقة بصلاح الدين الأول. لا نطالبهم إلا بالاتساق مع معاييرهم التي يتحدثون بها بأنفسهم.

رصد التناقض المعياري في الفكر السلفي المعاصر

نستهل قراءتنا بخبر نشرته صحيفة مصرية، وهي صحيفة "المصري اليوم"، تحت عنوان: "قيادي سلفي: سيكتب التاريخ أن صلاح الدين أخرج الشيعة من مصر ومرسي أدخلهم".

وجاء في تفاصيل هذا الخبر المنقول:

"قال الشيخ أحمد فريد، عضو مجلس إدارة الدعوة السلفية، إن القائمين على البلاد الآن يفتحون المجال للشيعة، مؤكدًا أن هذا مخالف لما وعد به الدكتور محمد مرسي قبل ذلك. وقال إن الشيعة خط أحمر، وإننا ندافع عن أصحاب النبي ضد المذهب الشيعي. وأضاف فريد في مؤتمر «الشيعة هم العدو فاحذرهم» المنعقد في محافظة كفر الشيخ مساء الخميس: لا بد لنا أن ندافع عن العقيدة، ووظيفتنا هي حراسة الدين والعقيدة، متسائلًا: هل لا تعلم جماعة الإخوان المسلمين ما الشيعة؟ وإن كانت تدري فتلك مصيبة، وإن كانت لا تدري فالمصيبة

أعظم. لن نقول لهم اسألوا علماء السلفيين، بل اسألوا علماء الإخوان وعلى رأسهم مفتي الجماعة الشيخ يوسف القرضاوي. وأكد أن السماح للسياح الإيرانيين بدخول مصر خيانة للأمة والشعب، والشيوخ الذين زكوا الرئيس محمد مرسي خيانة أن يسمحوا للشيعة الإيرانيين أو للسياح الإيرانيين بدخول مصر(١). مضيفًا: قد صرح آية الله الخميني من قبل بعد نجاح الثورة الإيرانية بقتل أهل السنة وإبادة مكة والمدينة وجعل القبلة إلى كربلاء.

وبخصوص هذا التصريح نقول للرئيس مرسي: ألا يقتل الشيعة الآن السنة في سوريا؟ وما يفعله حزب اللات وطالب «فريد» الرئيس مرسي بإظهار مواقف تنم عن الانتماء الحقيقي للإسلام، مؤكدًا أن ما يحدث خطرًا على البلاد، «ولعل استقالة المستشار محمد فؤاد جاد الله تكون تذكرة لهم». وأوضح أن الشيعة ليست من الإسلام في شيء، وإنما هي دين آخر خليط من اليهود والنصرانية والمجوسية، مضيفًا: «سيكتب التاريخ أن صلاح الدين

---

١ في حين أن السماح للسياح اليهود الإسرائيليين بدخول مصر لا يعد خيانة!

الأيوبي أخرج الشيعة من مصر، والدكتور مرسي أدخلهم»(١)" انتهى نص الخبر.

تلاحظون بوضوح نبرة الرعب والفزع المهيمنة على كلام هذا القيادي السلفي وأمثاله بمجرد موافقة محمد مرسي على دخول سياح إيرانيين إلى مصر، وهو ما يبرهن على مقدار الاهتزاز والضعف في أوساط بقايا الفرق البكرية أمام كل ما هو شيعي.

إن مجرد دخول إنسان شيعي إلى أرض مصر يزلزل كيانهم، وكأنهم يعلنون صراحة عن عجزهم التام عن مواجهة التشيع؛ بحيث يرون أن مجرد احتكاك سياحي عابر بين البلدين قد يؤول إلى اندثار الدعوة البكرية إلى الأبد داخل مصر. وإذا كان مجرد الاحتكاك السياحي يحدث في بنيانهم كل هذه الهزات والزلازل المؤدية لاندثار دعوتهم الباطلة، فكيف سيكون حالهم إذن أمام الاحتكاك العقدي، والفكري، والثقافي، وفي ظل جو المناظرات العلمية وتداول الكتب والمؤلفات؟

---

١ منقول بتصرف؛ من صحيفة المصري اليوم، الجمعة 26-04-2013 01:35 كتب: بسام رمضان.

إن ذلك يمثل بالنسبة إليهم كالقنابل الذرية والنووية التي ألقيت على مدينتي هيروشيما و ناغاساكي في اليابان! فهم جبناء ضعفاء جدًا.

وحسب ما تداولته الأخبار، فإن القرار كان مبنيًا على المعاملة بالمثل؛ أي كما يُسمح للإيرانيين بدخول مصر لأغراض السياحة بلا تأشيرة، يُسمح كذلك للمصريين بدخول إيران بلا تأشيرة وبكل سهولة، فالسياحة تبادلية.

وعجبًا، لماذا لم نجد أحدًا من علماء إيران أو مشايخ الحوزة العلمية يقف صارخًا ليقول: "**يا خامنئي، سيكتب التاريخ أن عمر بن الخطاب هو الذي زرع البكرية في إيران، وبعد ذلك جاء الصفويون والعلامة المجلسي وحولوها إلى التشيع، وسيكتب التاريخ أنك عمر ثانٍ لأنك ستدخل المصريين إلينا، وهؤلاء إذا دخلوا سيأتون بعقيدتهم ويسننون الشعب الإيراني ويعيدونه إلى جذوره وأصوله**"؟

حيث إن الشعب الإيراني فتح أعينه تاريخيًا على الإسلام البكري العمري، ولم يفتحها على إسلام أهل بيت النبوة(صلوات الله عليهم)، وإنما تشيع لعوامل شتى كان بدؤها تضحيات الشيعة العراقيين الذين نقلوا التشيع إلى داخل إيران، كما نقل التشيع إلى أقاليم أخرى عبر البحار.

فما سمعنا هكذا صياحًا؛ إذ قمنا بتفتيش سائر الأخبار في الصحافة الإيرانية والعربية، ولم نجد اعتراضًا واحدًا من داخل إيران من علماء الشيعة أو مشايخهم أو خطبائهم أو ناشطيهم على مسألة فتح الباب للمصريين أو غيرهم ليأتوا أفواجًا إلى إيران. ولا تجد مثل هذا الاعتراض في العراق، ولا في أي إقليم شيعي البتة.

لا تسمع صراخًا ولا عجيجًا يحذر من "المد السني" أو يعبر عن الخوف والويل؛ وإنما ينحصر هذا الصراخ وصرخات الاستغاثة والفزع في الجانب الآخر بمجرد نشاط سياحي.

وهذا يدل بوضوح على أن الطرف الآخر هو الطرف الناقص المهزوز الذي يدرك حجمه الحقيقي، ويعلم أنه لا يمتلك القدرة على الصمود إذا اختلط المخالفون بالشيعة؛ لأنهم يدركون أن هذا المجتمع، طال الزمان أم قصر، سيتحول كله إلى التشيّع. ولذلك يفضلون إبقاءهم منعزلين منعًا لتحول المخالف إلى التشيع وبقاء الشيعي على تشيعه. هم يخشون الاختلاق ويسعون لخلق مجتمعات منفصلة؛ لعجزهم عن مواجهة الشيعة والتشيع بالحجة العلمية، وبذلك فضحوا أنفسهم بأنفسهم.

أنت لا تسمع أبدًا في المجتمعات المختلطة بين الشيعة وغيرهم أن هناك خطرًا يهدد عقيدة الشيعة، نعم قد تسمع عن أخطار أمنية أو تضييق في الحقوق والواجبات، فالشيعة مضطهدون في المجتمعات المختلطة إذا كان الحاكم بكريًا، بل وحتى في هذا الزمن إذا كان الحاكم شيعيًا يواجهون التضييق؛ أي أينما ذهبوا تسد الأبواب في وجوههم، ولكن من الناحية العقدية لا تسمع بتأثرهم.

فلنأخذ سلطنة عمان مثلًا، وهي مجتمع مختلط يمثل الشيعة فيه أقلية، لا تسمع أن الشيعة هناك يعيشون أزمة عقدية أو يتأثرون بالفكر البكري أو الخارجي أو الإباضي؛ فالشيعي لا يتأثر بالغير لأن عقيدته هي الأكبر والأقوى، ولذلك يصمد أمام كل محاولات الاختراق. أما العكس فصحيح؛ لأن العقائد الأخرى غير التشيع عقائد هشة، ضعيفة، مهزوزة، تعيش إرباكات وتناقضات كثيرة، ومجرد الاستماع إلى المنطق الشيعي تتبخر وتنهار تلك العقائد.

بين نصر الله، وصلاح الدين!

ونعود إلى الشاهد الرئيس؛ انظروا كيف عبر أحمد فريد، هذا القيادي السلفي المصري، عن حزب الله إذ سماه "حزب

اللات"، في حين تعلمون أن هذا الحزب وقائده كانا إلى عهد قريب-إلى سنوات قلائل خلت-محل تأييد عارم لدى سائر الشعوب العربية والإسلامية، وبالخصوص الشعب المصري.

ارجعوا قليلًا إلى الوراء وفتشوا في الصحف المصرية ذاتها إبان أيام تحرير الجنوب اللبناني، وانظروا إلى الصور التي تصدرت تلك الصحف، كيف خرجت أفواج من المصريين وغيرهم إلى الشوارع مبتهجين، يحملون أعلام حزب الله وصور حسن نصر الله، بل وهتف بعضهم بحياته ملقبًا إياه بـ "أمير المؤمنين".

وبلغت الحماسة بهم أن علقوا صوره في محلاتهم، ودكاكينهم، وبيوتهم، بل وفي قلوبهم، وكانوا يهتفون: "يا نصر الله يا حبيب، اضرب اضرب تل أبيب".

وفي كل حرب من تلك الحروب، وبفعل الانتصارات العسكرية وتحرير الجنوب اللبناني، تعاطف الجميع معه واعتبروه بطلًا، وسيدًا للمقاومة، وصاحب الوعد الصادق.

وأنا أتذكر أيام وجودي في الكويت كيف كان المخالفون، ومنهم رموز بارزة، يشتركون في المظاهرات والمسيرات والمهرجانات المؤيدة لحزب الله، وكان من بينهم مشايخ

من السلفية والإخوان وغيرهم؛ فالكل كان يرى في حزب الله وحسن نصر الله شرفًا للعرب والمسلمين، بوصفها المقاومة التي لقنت العدو الصهيوني درسًا لا ينسى، وحررت الأرض، وأعادت لهذه الأمة كرامتها ومجدها بعدما تجرعت مرارة الهزائم المتتالية في الحروب العربية الصهيونية.

فما الذي تغير الآن؟

إذا وجَّهنا السؤال اليوم إلى أحمد فريد أو إلى غيره من رموز التيار البكري: ما الذي جعل حزب الله يتحول في خطابكم من «حزب الله» إلى «حزب اللات»؟ وما الذي جعل حسن نصر الله يتحول من قائدٍ للمقاومة إلى «حسن نصر الشيطان» في أدبياتكم؟

ما الذي تبدَّل؟ أليس هو الرجل نفسه الذي قاد المواجهة مع الكيان الصهيوني وحقق انتصاراتٍ عسكرية بارزة؟ أليس هو الذي أسهم في تحرير الأرض، ودعم فصائل المقاومة الفلسطينية، حتى غدت العلاقة بين حركة حماس وحزب الله علاقةً وثيقةً ومعلومة، تجلَّت في الدعم اللوجستي والعسكري وتوريد الأسلحة والصواريخ إلى المقاومة الفلسطينية؟

وأنتم تعلمون كذلك بقضية الشبكة التي أُلقي القبض عليها في مصر إبان حكم حسني مبارك، والتي قيل إنها كانت مرتبطة بحزب الله وتعمل على إيصال الأسلحة والصواريخ عبر الأنفاق إلى قطاع غزة دعمًا لحركة حماس وحركة الجهاد الإسلامي وسائر فصائل المقاومة الفلسطينية في مواجهة العدو الصهيوني. فما الذي تغيَّر بعد ذلك كله؟

سيجيبون بأن الذي تغيَّر هو انخراط حزب الله في الحرب السورية إلى جانب نظام بشار الأسد، وأن هذا التدخل - بحسب تصورهم - كشف عن حقيقته وأسقط عنه أي رصيدٍ اكتسبه من مواجهته للصهاينة. ولذلك فهم يرون أن انتصاراته السابقة وتحريره للأرض لا تكفي لتزكيته أو منحه الشرعية الأخلاقية، بل يصفون حسن نصر الله بأنه مجرم حرب شارك في دعم النظام السوري وأسهم في قتل إخوانهم من "أهل السنة" في سوريا!

وعندئذٍ نتوجه إليهم بسؤال آخر: إذا كانت انتصارات حزب الله على الصهاينة، ودوره في دعم المقاومة الفلسطينية، لا تشفع له بسبب ما وقع في سوريا، فلماذا لا تطبقون المعيار

نفسه على غيره؟ أليست حجتكم أن الاشتراك في قتل أبناء طائفتكم أو الاعتداء عليهم كافٍ لإسقاط كل رصيدٍ سابقٍ من الإنجازات والمواقف؟

فإنهم يجيبون: نعم، لا تشفع له تلك الانتصارات، لأن من وجَّه سلاحه إلى إخواننا من "أهل السنة" في سوريا لا يستحق التقدير عندنا، مهما كانت له من سوابق في قتال الصهاينة أو دعم المقاومة. فبمجرد أن أصبح - في نظرهم - طرفًا في سفك دماء أبناء طائفتهم، سقطت جميع حسناته السابقة من الاعتبار، وأصبح موقفهم منه موقفًا حاسمًا لا يعرف التردد ولا يقبل المراجعة!

نقول لهم: إذا كان هذا هو المعيار الذي تحتكمون إليه، فلماذا تنكرون علينا نحن الشيعة اتخاذ الموقف نفسه من صلاح الدين الأيوبي؟

فأنتم لا تفتؤون تشنيعًا علينا بقولكم: «انظروا إلى الرافضة كيف يطعنون في بطل الأمة ومحرر القدس صلاح الدين الأيوبي! وما حملهم على ذلك إلا تحالفهم مع اليهود والصليبيين، وإلا فكيف يعادون رجلًا حرر الأرض وصان العرض وحقق للأمة أعظم الانتصارات؟».

السفاح صلاح الدين الأيوبي

ومن أبرز ما تُشنّعون به علينا موقفنا من صلاح الدين، إذ لا نراه بطلًا ولا محلًّا للتبجيل، بل نعدّه طاغيةً سفّاكًا للدماء، ولا نرى أن تحريره للقدس كافٍ لمحو ما نعتقد أنه ارتكبه من جرائم ومظالم. فإذا كان هذا الموقف عندكم مستهجنًا، فنحن نواجهكم بالسؤال نفسه: لماذا تهاجمون حسن نصر الله؟

فإن قلتم: لأنه قتل إخواننا، كان جوابنا مطابقًا لجوابكم؛ فإن صلاح الدين قتل إخواننا كذلك، ولهذا السبب ذاته نتخذ منه موقفًا سلبيًا. وإن قلتم: إن انتصارات حسن نصر الله على الصهاينة لا تشفع له بعد ما فعله في سوريا، قلنا: وكذلك انتصارات صلاح الدين على الصليبيين لا تشفع له عندنا بعد ما فعله بالشيعة.

فأين الفرق بين الشخصيتين وفق هذا الميزان؟

فكلاهما - بحسب هذا التصور - حقق انتصارًا على عدو خارجي، وكلاهما ارتبط اسمه بقتل جماعةٍ يعدّها الطرف الآخر من إخوانه وأتباعه. فإن كان سفك الدماء كافيًا لإسقاط رصيد الانتصارات وإبطال أثرها المعنوي، وجب أن يكون الحكم واحدًا في الحالتين. وإن كانت الإنجازات

العسكرية كافيةً لمنح الاحترام والتقدير مهما اقترنت بمجازر وانتهاكات، فكان ينبغي لكم أن تستمروا في احترام حسن نصر الله إلى يومنا هذا.

فلماذا تصفون حسن نصر الله بأقبح الأوصاف، بينما تطالبون غيركم بتبجيل صلاح الدين؟ وأين هو الفارق الجوهري بين الرجلين في هذا الميزان؟

هل الفارق إلا أن صلاح الدين - في نظركم - لم يقتل البكريين وإنما قتل الشيعة، في حين أن حسن نصر الله قاتل جماعاتٍ تعدّونها من أبناء طائفتكم؟ فإن كان الأمر كذلك، فالمسألة ليست مسألة مبادئ عامة، وإنما مسألة انحيازٍ طائفيٍّ في تقييم الدماء والضحايا.

ومن هنا يتضح وجه الإشكال؛ فأنتم تطالبوننا باحترام صلاح الدين رغم وجود خصومة تاريخية عميقة بيننا وبينه بسبب ما نعتقد أنه ارتكبه بحق الشيعة على أساس الانتماء العقدي، بينما لا ترون بأسًا في رفض حسن نصر الله والتنصل من جميع منجزاته بسبب ما جرى في سوريا.

وللإنصاف، وكما هو معلوم، فإنني شخصيًا لا أتبنى مواقف حسن نصر الله ولا مواقف حزبه، ولا أوافقه إلا في

قضية مقاومة العدو الصهيوني، باعتبارها قضية تحظى بإجماع واسع بين المسلمين. أما سائر مواقفه وخياراته السياسية والعسكرية فلي عليها ملاحظات واعتراضات كثيرة.

ومع ذلك، فإن الإنصاف يقتضي التمييز بين الحالتين؛ فحسن نصر الله حين تدخل في سوريا لم يعلن حربًا مذهبية هدفها استئصال المخالفين في العقيدة، وإنما دخل في صراعٍ ذي أبعاد سياسية وعسكرية معقدة، مرتبط بتحالفه مع النظام السوري ومصالحه الاستراتيجية. فسواء أصاب في ذلك أم أخطأ، فإن مبررات تدخله كانت سياسية في أصلها، ولم تكن قائمة على إجبار الناس على ترك معتقداتهم أو تغيير انتمائهم المذهبي.

أما صلاح الدين الأيوبي - كما سنبين بالتفصيل في هذه الدراسة - فإن القضية معه تختلف من حيث الطبيعة والجوهر؛ إذ نعتقد أن سياساته استهدفت الوجود الشيعي نفسه، وسعت إلى اقتلا ع التشيع من مصر وإحلال المذهب البكري محله بالقوة والإكراه، وأن كثيرًا من أعمال القتل

والاضطهاد التي ارتبطت بعهده كانت ذات خلفية عقدية ومذهبية مباشرة.

والمضحك أن من أبرز المؤيدين للنظام السوري ولحسن نصر الله شخصياتٍ وجماعاتٍ تنتمي إلى المذهب البكري نفسه، ومن بينهم مشايخ ودعاة معروفون في لبنان وسوريا. ومن يتابع الخطابات الجماهيرية التي تُعرض على الشاشات العملاقة يرى في الصفوف الأولى عمائمَ بكريّةً ومشايخَ يعلنون تأييدهم لهذا المحور.

فهل أجبرهم حسن نصر الله على تغيير عقائدهم؟ وهل وضع السيف على رقابهم وأكرههم على التشيع؟

كلا، لم يحدث شيء من ذلك. وهذا وحده يكشف أن طبيعة الصراع الذي خاضه لم تكن صراعًا مذهبيًا هدفه استئصال المخالفين في العقيدة أو حملهم على ترك معتقداتهم، وإنما كان - بصرف النظر عن الموقف منه تأييدًا أو رفضًا - صراعًا سياسيًا وعسكريًا تحكمه حسابات السلطة والتحالفات والمصالح الإقليمية.

وأنا هنا لا أتحدث دفاعًا عن تلك الحرب، ولا أزعم تأييدي لهذا الطرف أو ذاك، بل إن لي موقفي الناقد منها ومن كثيرٍ

من نتائجها وتداعياتها. وإنما المقصود بيان التناقض الصارخ في المعايير التي يعتمدها خصومنا عند تقييم الشخصيات والأحداث التاريخية.

فإذا كان حسن نصر الله - رغم كل ما يُقال عنه - لم يخض حربه بقصد تغيير عقائد الناس أو فرض مذهب معين عليهم، فإن الصورة التي نعتقدها عن صلاح الدين الأيوبي تختلف جذريًا؛ إذ نرى أن مشروعه استهدف الوجود الشيعي ذاته، وسعى إلى اقتلاع التشيع من مصر وإحلال المذهب البكري محله بالقوة والإكراه، وما صاحب ذلك من صور القمع والاضطهاد المذهبي.

ومن هنا فإن المقارنة بين الرجلين، وفق هذا التصور، لا تؤدي إلى النتيجة التي يريدها خصومنا، بل على العكس تمامًا؛ إذ يظهر حسن نصر الله - رغم كل الاعتراضات الموجهة إليه - أقلَّ وطأةً بكثير من صلاح الدين الأيوبي. بل إن الفارق بينهما، من هذه الجهة، واسع إلى درجة تجعل القياس بينهما محل إشكالٍ أصلًا.

وعليه، يبقى السؤال مطروحًا: من أين جاءت هذه الازدواجية في المعايير؟ ولماذا يُطلب منا التغاضي عن كل

ما نعدّه جرائم ومظالم حين يتعلق الأمر بصلاح الدين، بينما يُرفض تطبيق المنطق نفسه على شخصيات معاصرة كحسن نصر الله؟

ولماذا يصبح تحرير الأرض عذرًا مقبولًا في حالة، ثم يفقد قيمته تمامًا في حالة أخرى؟ إن هذه الأسئلة تكشف أن القضية ليست قضية مبدأ ثابت بقدر ما هي قضية انحيازات مسبقة تؤثر في طريقة الحكم على الأشخاص والأحداث.

الهوية المذهبية لمصر قبل العهد الأيوبي

لا بأس قبل الشروع في الحديث عن صلاح الدين الأيوبي وسياساته أن نقدم تمهيدًا تاريخيًا موجزًا يوضح الواقع الديني والاجتماعي لمصر قبل مجيئه؛ إذ إن فهم هذه الخلفية ضروري لفهم طبيعة التحولات التي شهدتها البلاد لاحقًا.

ومن أشهر الدعاوى التي يكررها مشايخ الفرقة البكرية اليوم، ولا سيما المنتسبون منهم إلى مصر، زعمهم أن الدولة الفاطمية سعت طوال فترة حكمها إلى فرض التشيع على الشعب المصري بالقوة، إلا أن المصريين - بحسب روايتهم - ظلوا متمسكين بعقيدتهم السنية قرونًا متطاولة،

وأفشلوا جميع محاولات الدولة لتغيير مذهبهم، فبقي الشعب سنيًا رغم السلطة الشيعية الحاكمة.

غير أن هذه الدعوى، عند إخضاعها للبحث التاريخي الجاد، لا تعدو كونها صورةً من صور التبسيط المخلّ والمغالطة التاريخية. فالقائلون بها يتعاملون مع التاريخ بمنهج انتقائي يهدف إلى خدمة نتائج مسبقة أكثر مما يهدف إلى كشف الحقيقة التاريخية كما هي.

فإذا أردنا الرجوع إلى الجذور التاريخية الأولى للمصريين في صدر الإسلام، وجدنا أن مصر كانت من أهم مراكز المعارضة لسلطة عثمان بن عفان، وأن المصريين كانوا في طليعة القوى التي ثارت على عثمان بن عفان -لعنه الله-. بل إن المصادر التاريخية تذكر أن الوفود المصرية كانت تمثل رأس الحربة في تلك الحركة الاحتجاجية التي انتهت بمقتله، وقد تناولنا هذه المسألة بالتفصيل وأقمنا شواهدها في دراسة سابقة.

وعلى هذا الأساس، فإذا كان بعضهم يتحدث اليوم عن ضرورة إعادة الشعوب إلى أصولها التاريخية الحقيقية، فإننا نقول إن القراءة التاريخية نفسها تقتضي الاعتراف بأن للمصريين جذورًا مبكرة ارتبطت بالتيار الذي صار يُعرف

لاحقًا بالتشيع والرفض، لا أن يُصوَّر تاريخ مصر الإسلامي كله وكأنه امتدادٌ متصل للمذهب البكري دون انقطاع أو تحول.

ثم إن قيام الدولة الفاطمية في مصر لم يكن - بحسب ما تعكسه جملة من الوقائع التاريخية - نتيجة غزوٍ واجه مقاومة شعبية شاملة، ولا نتيجة فرض سلطة غريبة على مجتمع رافض لها بالإجماع، بل إن المتتبع للأحداث يلحظ أن حالة السخط على الحكم الإخشيدي وما تلاه من اضطرابات وأزمات داخلية هيأت الأرضية لاستقبال الفاطميين، وأن دخولهم مصر قوبل في أوساط واسعة بالترحيب والقبول، حتى استقرت لهم البلاد دون مقاومة تذكر مقارنة بما يقع عادة عند انتقال الدول وتبدل الأنظمة.

ومن هنا فإن تصوير الدولة الفاطمية على أنها سلطة مفروضة على شعب معادٍ لها منذ اللحظة الأولى، أو الادعاء بأن المصريين بقوا طوال قرنين من الزمان متمسكين بمذهب واحد لم يتأثر إطلاقًا بسياسات الدولة ومؤسساتها وثقافتها العامة، هو تصوير يحتاج إلى مراجعة علمية دقيقة، بعيدًا عن الخطابات المذهبية المعاصرة ومحاولات إعادة قراءة التاريخ وفق صراعات الحاضر.

وفي هذا السياق، ينص الدكتور عبد المنعم ماجد، أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب في جامعة عين شمس بمصر، في كتابه الموسوم "ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها"، على حقائق تدحض الدجل الممارس من مشايخ البكرية. والدكتور عبد المنعم ماجد ليس رجلًا شيعيًا، بل هو مؤرخ وأستاذ جامعي بكري، يقول في مصنفه ما معناه:

"**إن الفاطميين جاءوا من المغرب إلى مصر بناءً على دعوة المصريين أنفسهم**- فلا يظنن أحد أنهم جاءوا بقوة الاحتلال والقهر والإجبار لإركاع الشعب وتشييعه- **فلم يكن المصريون سعداء تحت حكم الأخشيديين**- الذين سبقوا الفاطميين، وأراد التخلص منهم- **فقد كانوا يتطلعون إلى مستقبل جديد مع هذه الدولة الإسلامية الفتية ليبنوا مصر الإسلامية التي لا تقل شأنًا عن مصر الفرعونية. فلما وصل جيش المعز لدين الله الخليفة الفاطمي من المغرب إلى الإسكندرية، سارع المصريون بإرسال وفد منهم إلى جوهر قائد جيشهم، باتفاق جميع طبقاتهم؛ كالقائد، والكاتب، والقاضي، والتاجر، والمسلم، والقبطي(١)**".

---

١ ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها ص٤١٠.

حتى النصارى الأقباط كانوا مبتهجين بقدوم الفاطميين. فأين هي مزاعمكم عن قوة الاحتلال وفرض الأحكام بالقوة ومحاولة إجبار الناس على التشيّع وصمود الشعب أمامها؟

ما هذا إلا كذب ودجل. إن أصول الشعب المصري رافضية؛ لأنه الشعب الذي ثار على عثمان، ورغم توالي الحكومات الأموية والعباسية عليه، فإن حب أهل البيت (عليهم الصلاة والسلام) لم يُنزع قط من قلوب المصريين؛ فهو شعب ذو هوية شيعية في ثقافته ووجدانه أيًا كان مذهبه الفقهي الظاهري (كالشافعية مثلًا)، فهم لا يقدمون على آل البيت أحدًا، وهذه طبيعة متجذرة في النفوس منذ بدايات تعرف مصر على الإسلام.

ولما سمعوا بالدعوة الفاطمية وانتساب هؤلاء الحكام إلى فاطمة (عليها السلام) بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله)، استقدموهم ورحبوا بهم طواعية وانتقلوا إليهم لأن البيئة المصرية بيئة شيعية، ولا ينكر ذلك إلا مكابر.

علاوة على ذلك، لم يُسجل في تاريخ الدولة الفاطمية أنها قهرت مخالفًا على اعتناق مذهبها، بل كانت تتعامل

بتسامح كبير واستثنائي بمقاييس تلك العصور؛ فكانت تدعم المذاهب الأخرى وإن خالفت مذهب السلطان الحاكم.

وللاستشهاد على ذلك، يمكن الرجوع إلى كتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" لأحد كبار مؤرخي وأدباء أهل الخلاف، وهو أبو العباس القلقشندي الفزاري، حيث يقول في معرض حديثه عن الفاطميين:

"كان من سيرهم في رعيتهم استمالة قلوب مخالفيهم، وكانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على مخالفة معتقدهم في ذلك (١)."

انظروا إلى هذا التسامح الفاطمي؛ دولة ترى في صلاة التراويح بدعة ومع ذلك لا تمنع رعاياها المخالفين من إقامتها، وتعتبر المذاهب الأخرى باطلة ومع ذلك لم تجبر أحدًا على ترك مذهبه، بل مكنتهم من إظهار شعائرهم بحرية تامّة.

---

١ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ص٥٢٤.

والمطالع للتواريخ يجد العجب في سيرة هذه الدولة؛ حيث عاش كبار علماء المذاهب الأربعة تحت ظلها بحرية كاملة، وكانت الحلقات العلمية تعقد في الجامع الأزهر بدعم من الدولة، وكان الحاكم الفاطمي يجري رواتب من بيت المال لفقهاء المذاهب الأخرى، ويعين منهم القضاة (كقاضي الشافعية وقاضي المالكية وقاضي الأحناف) ليقضوا بين أتباع طوائفهم بلا ضغط.

ويحدثنا التاريخ أن المالكية وحدهم كانت لهم خمس عشرة حلقة علمية داخل الجامع الأزهر-وهي بمثابة خمس عشرة كلية جامعية-وعلى رأس كل حلقة عالم مالكي يدرس مذهبه بكل طمأنينة.

ومن فقهاء المالكية في العهد الفاطمي رجل يعرف بـ "أبو بكر محمد بن سليمان النعال"، ينقل المؤرخون أن حلقته الدراسية في الأزهر كانت تدور حول سبعة عشر عمودًا من عواميد الجامع، وهو كناية عن الضخامة الكبيرة واتساع عدد طلابه الذين يحيطون بهذا العدد من السواري. هذا المظهر التعليمي الرسمي كان يقام في الجامع الأزهر

الذي بناه الفاطميون كمؤسسة دينية رسمية للدولة دون منع.

مثالٌ لتقريب الحال!

وهذا الأمر يشبه في عصرنا الحاضر-على سبيل التقريب-أن تقوم جامعة الإمام محمد بن سعود في القصيم، التابعة للنظام الوهابي السعودي والتي تمثل واجهته الرسمية، بإرسال تذكرة سفر على الدرجة الأولى لعالم رافضي، وتدعوه لإلقاء دروسه الرافضية طبقًا لفقه أهل البيت -عليهم السلام- داخل أسوار جامعتهم المخصصة لهم، مع إجراء راتب شهري له والترحيب به؛ أليس هذا يعد ضربًا من الخيال والتحال الفكري في واقعهم؟

نعم، قد يقال إن وجود علماء من مختلف الاتجاهات في المؤسسات التعليمية ليس أمرًا مستغربًا في ذاته، غير أن الكلام هنا ليس عن مجرد وجود أفراد متفرقين، بل عن سياسة عامة تعكس مستوى التسامح الديني والمذهبي داخل الدولة.

فإذا نظرنا إلى واقعنا المعاصر وجدنا أن الشيعة الإمامية في كثير من البلدان لا يُسمح لهم أصلًا بتدريس فقه أهل

البيت وعقائدهم في المؤسسات الدينية الرسمية التابعة للدولة. فخذ الكويت مثالًا؛ إذ تُعد كلية الشريعة بجامعة الكويت مؤسسةً رسميةً تمثل التعليم الشرعي المعتمد في الدولة، ومع ذلك فهل يُسمح لعالم شيعي إمامي أن يدرّس فيها الفقه الشيعي أو العقيدة الإمامية بوصفها مذهب معتبر داخل المؤسسة؟ الجواب معروف، وهو أن هذه المؤسسات تكاد تكون حكرًا على الاتجاه البكري ومذاهبه المختلفة.

ومن هنا يبرز السؤال: لماذا لا يُنظر إلى الدولة الفاطمية بالمعيار نفسه؟ فإذا كانت تلك الدولة تُنسب إلى الشيعة وتُعد دولةً شيعيةً في الأساس، فإن المصادر التاريخية تذكر وجود علماء وقضاة ومدرسين من الاتجاهات الأخرى داخل مؤسساتها، كما تذكر أنها لم تحرمهم من العطاءات والمخصصات المالية، ولم تمنعهم من ممارسة نشاطهم العلمي والتعليمي وفق مذاهبهم.

فإذا كان الخصوم يعيبون على الفاطميين انتسابهم إلى التشيع، فإن الإنصاف يقتضي أيضًا الاعتراف بما كان قائمًا من مساحة للتعايش والتسامح المذهبي داخل مؤسسات

الدولة. إذ كيف تُتهم دولةٌ بالسعي إلى استئصال المخالفين، بينما نجد المخالفين أنفسهم يتولون وظائف علمية وتعليمية في مؤسساتها الرسمية ويتقاضون منها الأرزاق والعطاءات؟

وعليه، فإن المقارنة بين بعض الوقائع التاريخية في العهد الفاطمي وبين أوضاع كثير من الدول المعاصرة تثير تساؤلات جدية حول مدى صحة الصورة الشائعة التي تُرسم لذلك العهد، وحول ما إذا كانت الأحكام المتداولة بشأنه نابعة من قراءة تاريخية موضوعية أم من مواقف مذهبية مسبقة.

حال المذاهب الأربعة في الدولة الفاطمية

ولم يقتصر الأمر على المالكية وحلقاتهم الخمسة عشر، وحلقة النعال الضخمة، بل كان من فقهائهم أيضًا "عبد الوهاب بن علي المالكي"، أحد أئمة المالكية المجتهدين، وضاقت به الدنيا في بغداد، ووصفه الخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد" بأنه **لم يُرَ في المالكية أفقه منه(١)**، ومع

---

١ انظر: تاريخ بغداد ج١١ ص٣١.

ذلك لم يلتفت إليه العباسيون في العراق؛ فآثر الهجرة إلى مصر لما سمعه عن ترحيب الفاطميين بالعلماء واهتمامهم بهم وإجرائهم الصِّلات المالية عليهم من بيت المال وإن خالفوا معتقدهم، وبالفعل قصد مصر وتدفقت عليه الأموال الفاطمية، لكن المنية عاجلته فمات وهو يقول ما معناه إنه عجب لكيفية انفتاح الأبواب له ثم اختطاف القدر إياه.

وكذلك كان للشافعية في ظل الحكم الفاطمي خمس عشرة حلقة علمية، برز من فقهائها: أبو الفتح سلطان بن إبراهيم الفلسطيني، والقاضي أبو الفضل محمد البغدادي، وأبو الحجاج يوسف الميروقي، ومجلي بن جميع المخزومي، والقاضي علي الموصلي الخلعي، وأبو محمد عبد الله السعدي.

ووصف هؤلاء بلقب "القاضي" يعني تعيينهم رسميًا من قِبل الدولة الفاطمية كقضاة للمذهب الشافعي يحكمون بين رعاياهم برغم الاختلاف العقدي.

أما الحنفية فكانت لهم ثلاث حلقات لقلة أعدادهم في مصر آنذاك، ولم يذكر التاريخ للحنابلة حلقة لعدم وجودهم أساسًا في البيئة المصرية.

هذه هي الدولة الفاطمية التي يشوه مشايخ المخالفين صورتها أمام الشعب المصري زاعمين أنها قوة خارجية فرضت نفسها وحاولت تغيير هوية الشعب وفشلت؛ إن هذا لهو الهراء بعينه، فالشعب ذو أصول رافضية استقدم الفاطميين طواعية، والتحول إلى الأكثرية الإسماعيلية تليها الإمامية تم برضاهم، مع بقاء المذاهب الأخرى متمتعة بكامل حريتها وشعائرها.

الانقلاب الأيوبي وتأسيس سياسة الاضطهاد الطائفي

ما الذي غير الشعب المصري إذن وجعله يتمذهب بالبكرية؟ الذي غيره هو ذلك القادم من الخارج الذي أجبر الشعب قسرًا على اعتناق عقيدة مخالفة، وجعل السيف مصيرًا لمن أبى؛ ونعني به صلاح الدين الأيوبي.

كيف وصل صلاح الدين إلى سدة الحكم في مصر؟

هذا الأمر يغفله الدجالون؛ فقد تمكن في مصر لأن الفاطميين هم من مكنوه وجعلوه وزيرًا تنفيذًا لسياسة التسامح لديهم؛ فالخليفة الفاطمي الأخير "العاضد لدين الله" هو من استقدمه ووزره وجعله بمثابة رئيس وزراء يتحكم في مفاصل الدولة غير آبه باختلاف مذهبه. لكن صلاح الدين قابل الإحسان بالإساءة، ولما استشعر ضعف

العاضد بسبب المرض وتقدم السن، انقلب على ولي نعمته وفرض العقيدة والمذهب البكري على أهل مصر بطرق بشعة.

وقبل استعراض الشواهد التاريخية، أود التنبيه على أمر جوهري: أرجو ألا يُفهم من ثنائنا على تسامح الدولة الفاطمية أننا نضفي عليها رداء الشرعية؛ كلا، فنحن ضد الدولة الفاطمية ونراها دولة غير شرعية ومنحرفة العقيدة لإسماعيلية مذهبها، وحكامها كانوا دنيويين طلاب سلطة وإمرة وليسوا عدولًا، وكانوا يتلاعبون بالعقيدة والأحكام الشرعية في كثير من الأحيان.

لسنا كالبكريين الذين يضفون الشرعية والقدسية على كل من يعادي الشيعة مهما ارتكب من الموبقات؛ نحن محكومون بالمبادئ، والمتسمي بالتشيع إن لم يكن مستقيم العقيدة عادلًا فلا قيمة له عندنا وإن كان منا.

ولذلك لست مع الأصوات الشيعية-داخل مصر وخارجها- التي تحاول رسم صورة مثالية للدولة الفاطمية، وعلينا ألا نقع في هذا المرض البكري.

إن معيارنا واضح!

استقامة العقيدة بموالاة رسول الله وآل بيته (عليهم السلام) والعمل بالثقلين، والعدالة المسلكية؛ فلا نحترم شخصًا يؤمن بالأئمة الاثني عشر المعصومين (صلوات الله عليهم) ولكنه شارب خمر أو مرتكب للمنكرات، بل نسقط تبجيله.

والفرق أن البكريين يعظمون صلاح الدين ويمجدونه بزعم انتصاره ومحوه للرافضة، رغمًا عن كونه شارب خمر- وهو ما سنثبته في الفصل القادم..

إن الدولة الفاطمية وإن كانت تسامحية مذهبًا في بعض الأطوار، إلا أنها في أطوار أخرى اضطهدت الرافضة الشيعة وضايقتهم لتداخل المصالح السياسية وتضاربها، وتلاعبت بالأحكام الشيعية الإسلامية الأصيلة.

تلاعب الدولة الفاطمية بالأحكام الشيعية

ولتوثيق ذلك، نقرأ ما سطره أشهر مؤرخي الديار المصرية، تقي الدين المقريزي، في كتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" المعروف بـ "خطط المقريزي"،:

"**وفي يوم عاشوراء من سنة ست وتسعين وثلاثمائة، كان من اجتماع الناس ما جرت به العادة** [أي في النوح على الحسين الشهيد عليه السلام والنيل من أعدائه كأبي بكر وعمر

وعائشة]، **وأعلن بسب السلف فيه فقبض على رجل نودي عليه: هذا جزاء من سب عائشة وزوجها** [صلى الله عليه وآله]، **ومعه من الرعاع ما لا يقع عليه، حصروهم يسبون السلف، فلما تم النداء عليه ضرب عنقه."**

هذا الحدث وقع في العهد الفاطمي؛ حيث جرى إعدام رجل شيعي بتهمة سب عائشة لغايات سياسية معينة، وهو يشبه ما يروج له الإعلام البكري اليوم ضدي من تهمة شتم رسول الله (صلى الله عليه وآله) لإحداث ملازمة بين عائشة وعرض النبي لتسويغ الأحكام كما فُعل مع هذا الرجل(١)!

ويمضي المقريزي في الرصد التاريخي لتقلبات الحاكم بأمر الله الفاطمي السياسية وتلاعبه بالعقيدة:

"وفي تاسع ربيع الآخر أمر الحاكم بأمر الله بمحو ما كتب على المساجد وغيرها من سب السلف، وطاف متولي الشرطة وألزم كل أحد بمحو ما كتب على المساجد من

---

١ تتماثل هذه الممارسات التاريخية للدولة الفاطمية بشكل دقيق مع السياسة المتبعة اليوم في إيران؛ حيث يُسجن المؤمنون هناك تحت التهمة ذاتها (سب عائشة). ولم يقتصر هذا الأمر على عامة الناس، بل امتد ليشمل كبار المراجع والفقهاء، كما جرى مع الشيخ الرستكاري الجويباري الذي تعرض للاعتقال بسبب هذه التهم وسواها.

ذلك... وفي تاسع عشر شهر شوال أمر الحاكم بأمر الله برفع ما كان يؤخذ من الخمس والزكاة والفطرة والنجوى، وأبطل قراءة مجالس الحكمة في القصر، وأمر برد التثويب في الأذان [وهو قول الصلاة خير من النوم، وهي بدعة عمر بن الخطاب التي أعادها للأذان الحاكم الفاطمي المدعي للتشيع]**، وأذن للناس في صلاة الضحى وصلاة التراويح** [وكلتاهما بدعة]**، وأمر المؤذنين بأسرهم في الأذان بأن لا يقولوا حي على خير العمل و أن يقولوا في الأذان للفجر الصلاة خير من النوم... ثم أمر في ثاني عشر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعمائة بإعادة قول حي على خير العمل في الأذان وقطع التثويب، وترك قولهم الصلاة خير من النوم، ومنع من صلاة الضحى وصلاة التراويح، وفتح باب الدعوة وأعيدت قراءة المجالس بالقصر على ما كانت، وكان بين المنع من ذلك والإذن فيه خمسة أشهر."**

ويتابع المقريزي في رصد تلك الحقبة الفاطمية المضطربة:

"وفي شوال اعتقل رجل ثم شهّر، ونودي عليه: هذا جزاء من سب أبا بكر وعمر ويثير الفتن، فاجتمع خلق كثير بباب القصر فاستغاثوا: لا طاقة لنا بمخالفة المصريين ولا بمخالفة الحشوية من العوام، ولا صبر لنا على ما جرى،

وكتبوا قصصًا فصُرفوا ووعدوا بالمجيء في غد، فبات كثير منهم بباب القصر واجتمعوا من الغد فصاحوا وضجوا، فخرج إليهم قائد القواد غين فنهاهم وأمرهم عن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أن يمضوا إلى معايشهم، فانصرفوا إلى قاضي القضاة مالك بن سعيد الفارقي وشكوا إليه فتبرم(١) من ذلك... فمضوا، وفيهم من يسب السلف ويعرّض بالناس، فقرئ سجل في القصر بالترحم على السلف من الصحابة والنهي عن الخوض في ذلك. وركب مرة فرأى لوحًا على قيسارية فيه سب السلف فأنكره، وما زال واقفًا حتى قُلع، وضرب بالحرس في سائر طرقات مصر والقاهرة، وقرئ سجل بتتبع الألواح المنصوبة على سائر أبواب القياسر والحوانيت والدور والخانات والأرباع المشتملة على ذكر الصحابة والسلف الصالح رحمهم الله بالسب واللعن وقلع ذلك وكسره وتعفية أثره ومحو ما كان على الحيطان من هذه الكتابة، وإزالة جميعها من سائر الجهات حتى لا يرى لها أثر في جدار ولا نقش في لوح، وحذر فيه من المخالفة وهدد بالعقوبة."

---

١ أظهر البرمَ والملالة من شكاويهم.

توضح هذه النصوص التاريخية أن الدولة الفاطمية اضطهدت الرافضة في مراحل معينة لمصالحها، وحاولت محو الهوية الرافضية المكتوبة على الجدران والحوانيت، بل وأعدمت من ينال من الصحابة، وواجهت احتجاجات شيعية إمامية ثائرة دافعت عن معتقدها، ثم تراجعت الأمور لاحقًا.

يقول: "**ثم انتقض ذلك كله ومات الأمر إلى ما كان عليه.**"

ثم ينقل المقريزي حادثة مقتل الخليفة الآمر بأحكام الله، وقيام "أبو علي أحمد الملقب بكتيفات بن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش" بالاستيلاء على الوزارة سنة ٥٢٤هـ وسجن الحافظ لدين الله الفاطمي، حيث كان كتيفات شيعيًا إماميًا ثار على الإسماعيلية وأعلن الدعوة للإمام المنتظر (صلوات الله عليه)، وسك دراهم نقش عليها: "**الله الصمد، الإمام محمد**" تيمنًا باسم صاحب الأمر (عليه السلام). ويذكر المقريزي في المجلد ذاته:

"**ورتب في سنة خمس وعشرين أربعة قضاة؛ اثنان أحدهما إمامي والآخر إسماعيلي، واثنان أحدهما مالكي والآخر شافعي، فحكم كل منهما بمذهبه وورّث على مقتضاه.**"

لاحظوا كيف أن هذا القائد العسكري الإمامي عندما تسلم مقاليد الحكم وسجن الخليفة الإسماعيلي، لم يمارس اضطهادًا عقائديًا ضد الإسماعيلية أو البكرية، بل عيّن أربعة قضاة يمثلون سائر الطوائف الموجودة في مصر (الإمامية، الإسماعيلية، المالكية، الشافعية). ليحكم كل طائفة بمذهبها في الأحوال والمواريث بلا تضييق. إن المقارنة التاريخية تثبت أن فترات حكم الشيعة كانت تنعم بهامش واسع من الحرية والتعددية مقارنة بحكم غيرهم؛ فلم يسجل التاريخ أن حكمًا شيعيًا أجبر شعبًا على التشيع قسرًا، بينما يسجل العكس بكثرة ضد المخالفين، والاضطهاد مستمر إلى اليوم في المملكة السعودية ضد الشيعة المتشيعين ! هناك حيث يقتلون ويمنعون من حرية الاعتقاد، بينما لو تشيع شخص أو تسنن في إيران والنجف لا يبلغ الأمر حد الهدر الأمني، بعكس ما جرى للفتاة الشهيدة في المدينة المنورة التي دهسها والدها البكري بالسيارة لاعتناقها مذهب أهل البيت وظل طليقًا برضا القاضي(١).

---

١ تبرز قضية الأخ المغيّب مطرب بن مشعل الشمري نموذجًا للتضييق على التحول المذهبي، إذ فُقدت أخباره منذ إعلانه التشيع عام ٢٠٢٠م على القنوات الاتحادية (فدك وصوت العترة) وسط أنباء عن اعتقاله.

ويشير المقريزي إلى أن كتيفات أسقط ذكر إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق -عليه السلام- من الخطبة، وأبطل من الأذان "حي على خير العمل" وعبارة "محمد وع-لي خير البشر"، ولما قُتل في المحرم سنة ٥٢٦ هـ عاد الأمر إلى مذهب الإسماعيلية، وظل الحال كذلك حتى قدمت عساكر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي[١] من دمشق بقيادة أسد الدين شيركوه، الذي تولى وزارة مصر للخليفة الفاطمي العاضد لدين الله، ولما مات شيركوه تولى ابن أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة في جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ.

تصوير المقريزي للإنقلاب الأيوبي الدموي

وهنا بدأ الانقلاب الأيوبي الدموي، ويصوّره المقريزي بقوله:

"**وشرع في تغيير الدولة وإزالتها، وحجر على العاضد** [فرض عليه الإقامة الجبرية وفرق بين رجال الفاطميين ونسائهم لقطع نسلهم بنذالة قذرة لم يفعلها النبي ولا أمير المؤمنين بأعدائهم]، **وأوقع بأمراء الدولة وعساكرها فقتلهم، وأنشأ بمدينة مصر مدرسة للفقهاء الشافعية**

[١] وهو ولي نعمة صلاح الدين، وكان يحكم دمشق أنذاك.

ومدرسة للفقهاء المالكية، وصرف قضاة مصر الشيعة كلهم، وفوض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الشافعي، فلم يستنب عنه في إقليم مصر إلا من كان شافعي المذهب، فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب مالك والشافعي، واختفى مذهب الشيعة و الإسماعيلية والإمامية حتى فُقد من أرض مصر."

ويضيف المقريزي واصفًا التمكين المذهبي القسري:

"وكذلك كان السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي حنيفًا [حنفيًا] **فيه تعصب، فنشر مذهب أبي حنيفة ببلاد الشام ومنه كثرت الحنفية بمصر، وبنى لهم السلطان صلاح الدين المدرسة السيوفية بالقاهرة، وما زال مذهبهم يقوى وفقهاؤهم تكثر بمصر والشام من حينئذ. وأما العقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري تلميذ أبي علي الجبائي(١)... فاستمر الحال على عقيدة الأشعري بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن**

---

١ ومن المفارقات اللافتة أن السلفية يحكم كثيرٌ منهم على الأشاعرة بالضلال، بل قد يصل بعضهم إلى تكفيرهم، ومع ذلك يرفعون من شأن صلاح الدين الأيوبي ويدافعون عنه، مع أنه كان أشعريَّ العقيدة.

وبلاد المغرب... حتى أنه صار هذا الاعتقاد بسائر هذه البلاد بحيث أن من خالفه ضربت عنقه، والأمر على ذلك إلى اليوم.(١)"

إن صلاح الدين الأيوبي الذي تهتفون باسمه كان رجلًا سفاحًا مجرمًا يحمل الناس بالسيف على العقيدة الأشعرية والمذهب الشافعي، ومن خالف عقيدته ضربت عنقه؛ مما يعني أن السلفيين المعاصرين لو عاشوا في زمنه لقتلهم لرفضهم الأشعرية!

فكيف تمجدون مستبدًا ديكتاتورًا سفاحًا ارتكب المجازر بحق الشيعة وبحق مخالفيه السياسيين من البكريين؟

التصفية الطائفية التي قام بها صلاح الدين الأيوبي

ونطالع مصدرًا تاريخيًا آخر يؤكد هذه التصفية الطائفية؛ وهو كتاب "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" لجلال الدين السيوطي، حيث يقول:

"ولما استقل السلطان صلاح الدين بأرض مصر، أسقط عن أهلها المكوس والضرائب، وقرئ المنشور بذلك على

---

١ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج٤ ص١٦٤.

رؤوس الأشهاد يوم الجمعة بعد الصلاة لثالث صفر سنة سبع وستمائة، واستولى على القصر وخزائنه وفيها من الأموال ما لا يحصى - إلى أن يقول- **وأخذ السلطان صلاح الدين في نصر السنة وإشاعة الحق وإهانة المبتدعة والانتقام من الروافض وكانوا بمصر كثيرين.(١)"**

لقد اعتمد حكمه على الانتقام والقتل والتطهير الطائفي ضد الروافض الكثر في مصر.

دلالة تسمية باب الصعايدة في الأزهر

ويؤكد المؤرخون أن "باب الصعايدة" في الأزهر سمي بذلك لأن صلاح الدين كان يأتي بالشيعة الصعايدة ويذبحهم عليه واحدًا تلو الآخر، بعد أن نزح الشيعة إلى الصعيد بجنوب مصر وشرقها هربًا من البطش، وظلت عوائل الأشراف والسادة هناك تحتفظ ببعض المراسم وجدانيًا رغم تمذهبها بالمذهب السائد لاحقًا بفعل التطهير الطائفي.

---

١ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ص٢١٢.

أساليب صلاح الدين الوحشية في التعذيب

وللتدليل على أساليب صلاح الدين الوحشية في التعذيب من أجل تحصيل المآرب المادية، ينقل المقريزي في "الخطط" في معرض حديثه عن المشهد الحسيني الشريف بمصر المقترن برأس الإمام الحسين (عليه السلام):

"وسمعت من يحكي حكاية ويستدل بها على بعض شرف هذا الرأس الكريم المبارك... وهي أن السلطان الملك الناصر صلاح الدين لما أخذ هذا القصر، وُشي إليه بخادم له قدر في الدولة المصرية وكان زمام القصر، وقيل له إنه يعرف الأموال التي بالقصر والدفائن، فأخذ وسئل فلم يجب بشيء وتجاهل، فأمر صلاح الدين نوابه بتعذيبه؛ فأخذه متولي العقوبة وجعل على رأسه خنافس وشد عليها قرمزية [طاقية محكمة من الحجر**]، وقيل إن هذه أشد العقوبات وأن الإنسان لا يطيق الصبر عليها ساعة إلا تنقب دماغه وتقتله... ففعل ذلك به مرارًا وهو لا يتأوه، وتوجد الخنافس ميتة، فعجب من ذلك وأحضره صلاح الدين وقال له: هذا سر فيك ولا بد أن تعرفني به، فقال: والله ما**

سبب هذا إلا أني لما وصلت رأس الإمام الحسين حملتها... فقال صلاح الدين: وأي سر أعظم من هذا؟ وعفا عنه.(١)"

تظهر هذه الرواية التاريخية وحشية صلاح الدين، واستعداده لتعذيب البشر بأساليب لا تقرها الشرائع ولا الأخلاق الإنسانية للحصول على الأموال والدفائن الفاطمية. ومع غض النظر عن مسألة دفن الرأس الشريف وعقيدتنا في رده إلى الجسد بكربلاء، فإن العبرة بالنيات؛ كقصة المرأة العمياء في الهند التي أبصرت ببركة تراب عادي ظنته من كربلاء لحسن نيتها، فالله جعل البركة في هذا الخادم لنيته في تعظيم رأس منسوب للحسين (عليه السلام).

ونجد شاهدًا آخر على التغيير المذهبي القسري في "سير أعلام النبلاء" للذهبي ناقلًا عن العماد الكاتب في وصف الفتح والاستيلاء على الذخائر الفاطمية وببيعها لمد عشر سنين، وجاء في كتاب القاضي الفاضل-الذي غير خطه السياسي والمذهبي وتملق لصلاح الدين بعد أن كان موظفًا يمدح الفاطميين وعيد الغدير-إلى بغداد يمتدح المآل الجديد:

---

١ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج٢ ص٣٢٣.

"وقد توالت الفتوح غربًا ويمنًا وشامًا، وصارت البلاد بل الدنيا والشهر بل والدهر حرمًا حرامًا، وأضحى الدين واحدًا بعد أن كان أديانًا... والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها صمًا وعميانًا، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلة في شيع الضلال شائعة... ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعًا وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعًا، وقطع دابرهم ورغمت أنوفهم ومنابرهم، وحقت عليهم الكلمة تشريدًا وقتلًا... ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.(١)"

يعترف القاضي الفاضل صراحة بأن توحيد الدين والمذهب إنما تم عبر سياسة التشريد والقتل المنظم للشيعة في مصر.

فنعيد طرح السؤال على البكريين والمصريين: لماذا تستنكرون إهانة حسن نصر الله بدعوى قتله السُنّة في سوريا، وتطالبوننا في الوقت عينه بتوقير صلاح الدين الأيوبي الذي شرد وقتل إخواننا في مصر؟ إن الأمر سواء، والمواقف ينبغي أن تتسق؛ فإما رفض الشخصيتين معًا وفق

١ سير أعلام النبلاء للذهبي ج٥ ص٢١٤.

معيار الدم، وإما قبولهما وفق معيار الانتصارات العسكرية، أما الازدواجية فلا تصمد أمام النقد العلمي.

صـلاح دينـهم.. خمّـار
نـذل متجـبر

لـقد تـضمن حـديـثنا فـي الـفصل الـمنصرم وعـدًا بـتناول جوانب حجبتها الأستار من سيرة صلاح الدين الأيوبي؛ وذلك تـأصـيلًا مـنا لـضرورة اتـصاف الإنـسان المسـلم بـالـتوازن والموضوعية في تقييم الشخصيات التاريخية الغابرة، فلا تطغى مزية إيجابية واحدة -إن سُلّم بكونها إيجابية- على سائر المثالب والسلبيات، ولا العكس بالعكس.

إننا أمام شخصية غلا فيها الطرف المخالف غلوًا شديدًا، ورفعوها إلى مصاف الأساطير التي لا نظير لها في التاريخ؛ متذرعين في ذلك بفرية أنه القائد الذي استطاع تحرير القدس الشريف من براثن الصليبيين.

أما مسألة التحرير هذه، بحقائقها، وحيثياتها، ومجرياتها الواقعية، فسوف نرجئ الحديث عنها مستفيضًا إلى الفصل المقبل، حيث سينجلي حينئذٍ أن واقع الأمر يباين تمامًا تلك الصورة الذهنية الشائعة.

بيد أننا نقرر هاهنا تنزلًا: أنه لو فرضنا جدلًا تمامية وصحة ما ينسبونه لهذا الرجل في شأن استنقاذه لبيت المقدس، وعمدنا إلى استقراء مجموع ما تواتر إلينا من صفحات سيرته، لما وجدنا فيها من بقعة بيضاء سواها، وهي على ما بها من علل وهنات. فما بال القوم يضربون صفحًا عن سائر الصفحات الأخرى شديدة السواد، والتي تكشف بصورة جلية عن الوجه الآخر الحقيقي لهذه الشخصية؟

إن تلك الصفحات القاتمة لو عُرضت على عامة الناس، ووقفوا على حقيقة هذا الرجل، وصفاته، وتصرفاته، وأعماله، لأدركوا يقينًا أن من المعيب والمخزي علميًا وإنسانيًا أن تُحترم شخصية كهذه. ومن هنا، نرى لزامًا علينا المضي في تبيان تلك الحقائق المغيبة.

السياق التاريخي لظهور صلاح الدين الأيوبي في مصر

لقد سلف القول في الفصل السابق إن صلاح الدين الأيوبي استُقدم إلى مصر من قِبل آخر حكام الدولة الفاطمية، وهو الخليفة العاضد لدين الله.

ولإيضاح المسألة بجلاء سياقي تام، نقول: إن الخليفة العاضد الفاطمي، حينما استشعر وطأة التهديد الصليبي الجاثم، وأيقن أن الإفرنج على وشك اجتياح دياره وديار المسلمين، أرسل يستغيث بحاكم حلب آنذاك، وهو الملك نور الدين زنكي، الذي تناولنا سيرته غير مرة في محاضراتنا المنبرية، ووصفناه بالمتجبر، رغمًا عن أن المخالفين عدّوه سادس الخلفاء الراشدين، ولم تكن له من حسنة تذكر عندهم سوى قضاءه على الوجود الشيعي في حلب، وتدمير دولة الحمدانيين التي كانت قائمة هناك من قبل. فقد أذاق الشيعة الويلات، وقد عرضنا شواهد من صفحاته السوداء في محاضراتنا السابقة.

والملمح الجدير بالالتفات هنا، هو أن العاضد الفاطمي، على الرغم من تصنيفه ضمن الدائرة الشيعية الكبرى لكونه إسماعيلي المذهب، قد تناسى وتغافل عما اقترفه نور الدين

زنكي بحق الشيعة الإمامية والإسماعيلية في حلب، ومَدّ يده إليه طالبًا النجدة العسكرية لصد الزحف الإفرنجي الصليبي. ويميل بعض المحللين إلى تفسير هذا الموقف بأنه يمثل حالة من التعالي على العصبية المذهبية، والارتقاء إلى مستوى الإحساس الديني العام أو المصلحة الوطنية الإستراتيجية إن جاز التعبير.

وبناءً على تقييم هذا الفريق، يفترض أن تُعد هذه الخطوة نقطة مضيئة في سيرة العاضد، تدرأ عنه وعن الفاطميين تهمة التقاعس أو عدم الاكتراث أمام الحملات الصليبية. بل إنها تدحض مزاعم بعض الذين يستخفون بعقول العوام عبر إيهامهم بأن الفاطميين كانوا ينسجون علاقات سرية مع الصليبيين وأنهم من استقدموهم إلى ديار المسلمين؛ فالأمر ليس كذلك مطلقًا، بل الثابت تاريخيًا أن للفاطميين مواقف مشهودة في صد الصليبيين وبذل المهج في هذا السياق.

بيد أنه من الناحية الإجمالية، يجب أن ندرك أن مثل هذه التوافقات بين خصوم الأمس -أي بين العاضد ونور الدين زنكي- لم تكن خالصة لوجه الله تعالى، بل كانت توافقات مصلحية تمليها ترتيبات الحكم والدفاع في حقبة تشرذمت

فيها الأمة الإسلامية إلى دويلات مستقلة ذاتيًا؛ فبعضها كان يستظل بالسقف الاسمي للخلافة العباسية في بغداد، والبعض الآخر كان يدين بالولاء الاسمي للخلافة الفاطمية في القاهرة. وفي ظل هذا الواقع السياسي المتشظي، كان من الطبيعي جدًا نشوء تحالفات وعقود مصلحية متبادلة بين قوى تتعارض مذهبيًا أو طائفيًا، رغبةً في الإبقاء على عروشها.

لقد كان حكم العاضد مهددًا بالزوال من قِبل الصليبيين، فلما أحس بهذا الخطر الداهم، آثر التغافل عن تعصب نور الدين زنكي ومجازره بحق الشيعة، وبسط يده إليه لصد العدوان المشترك، مكافئًا إياه بإطلاق يد قادة الجند الذين سيرسلهم من الشام في إدارة بلاد مصر، مقابل الإبقاء على حكمه ضمن بروتوكول معين.

وأيًّا يكن التفسير والتحليل التاريخي، فإن النقطة الجوهرية المراد إثباتها هنا هي أن الفاطميين وآخر خلفائهم لم يكونوا واقفي الأيدي أو متواطئين أمام الهجمات الصليبية.

فحينما استنجد العاضد بنور الدين زنكي، بادر الأخير بإرسال جيش كنيف يقوده أحد كبار قادته العسكريين، وهو أسد الدين شيركوه، ومعه ابن أخيه يوسف بن أيوب، الملقب بصلاح الدين. وقد قدم هذا العسكر الشامي إلى مصر بالأساس لمواجهة الصليبيين الذين كانوا يتأهبون لغزوها، غير أن الذي جرى هو تراجع الصليبيين نتيجة صفقة مالية أُبرمت مع بعض الأطراف المصرية، فانكفأوا متناسين أمر الغزو.

وفي تلك الأثناء، استقبل الخليفة العاضد العسكر الشامي وأطلق يدهم في البلاد، ولم تمضِ سوى أشهر قلائل حتى وافت المنية أسد الدين شيركوه. وإثر وفاته، تنافس رؤوس الجند على تولي القيادة خلفًا له، فتدخل الخليفة العاضد واستدعى صلاح الدين الأيوبي مقربًا إياه، وخلع عليه خلعة الوزارة، ليصبح بذلك الوزير الرسمي الأول للدولة الفاطمية.

غير أنه لم تمضِ سنوات قلائل حتى ارتد هذا الوزير على الدولة التي اصطنعته فأسقطها، ثم ارتد على ولي نعمته الأصلي -نور الدين زنكي- مستغلًا وفاته، ليدخل الشام ويبسط نفوذه هناك، بل ويصل الأمر به إلى نكاح امرأته.

وفي هذا الصدد، ينقل المؤرخ ابن الأثير في كتابه الحافل *الكامل في التاريخ*، تفاصيل استغاثة العاضد بنور الدين زنكي، حيث يقول:

"**وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج فشرع في تسيير الجيوش(١)**".

فشرع نور الدين على الفور في تسيير الجيوش. إذن، كانت هذه هي البداية التأسيسية لوجود صلاح الدين في مصر رفقة عمه شيركوه.

السيرة الشخصية لصلاح الدين ومعاقرتة الخمور

لقد كان صلاح الدين الأيوبي، قبيل قدومه إلى مصر، يتولى منصبًا أمنيًا في الشام، حيث يذكر المؤرخ الذهبي في *سير أعلام النبلاء* قوله:

"**وكان صلاح الدين شِحنة دمشق**".

---

١ الكامل في التاريخ لابن الأثير ج٥ ص١٠٢.

ومصطلح "الشحنة" في العرف التاريخي آنذاك يعني القائد العسكري المسؤول عن جماعة من الجند يُستكفى بهم في بسط الأمن الداخلي والمرابطة، وتغلب هذه اللفظة على القائد نفسه فيقال: فلان شحنة. واللافت في النص الذي يورده الذهبي -وهو ما يخفى على جماهير المسلمين المستغرقين في سباتهم المعرفي- هو اعترافه الصريح بواقع الرجل الشخصي؛ إذ يقول النص:

"**وكان صلاح الدين شحنة دمشق، فكان يشرب الخمر!**".

إن هذه الحقيقة التاريخية تضرب في الصميم الصورة النمطية الزائفة التي روجت لها وسائل الإعلام والمسلسلات والأفلام، والتي حاولت تصويره في حلة الزاهد العابد التقي الورع؛ فقد كان في واقع أمره معاقرًا للخمر. والذهبي، في محاولة منه لتجميل هذه الصورة وتحسينها، أردف العبارة بقوله: "**ثم تاب**"، مشيرًا إلى أنه "**وكان محببا إلى نور الدين يلاعبه بالكرة (١)**" مما يوحي بأن نور الدين كان ينزله منزلة الولد ويدانيه.

بيد أن استقراء المصادر التاريخية الأخرى يوضح أن التوبة المزعومة من شرب الخمر لم تقع إبّان وجوده في دمشق

---

١ سير أعلام النبلاء للذهبي ج٢١ ص٢٨٢.

كما يوهم ظاهر كلام الذهبي -الذي قد يُفهم منه أنها كانت كبوة شباب انقضت في الشام- بل إن المصادر تبين استمراره في معاقرة الخمر حتى بعد دخوله مصر رفقة عمه شيركوه، ومواظبته على ذلك زمنًا طويلًا.

ويذكر المؤرخون أن إظهاره للتوبة والإقلاع عن اللهو لم يتجسم إلا بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه نتيجة التخمة، وتكليف العاضد له بمنصب الوزارة؛ مما يدل على أن فترة معاقرته للخمر امتدت إلى حين تسنمه ذروة السلطة في مصر.

وهناك مصادر تاريخية أخرى تشير إلى أن أحد أسباب الخلاف المستعر الذي وقع لاحقًا بين صلاح الدين والخليفة العاضد يعود إلى جارية استصفاها العاضد لنفسه أو لأخيه، بعد ليلة صاخبة جمعتهم جموعًا على الخمر والجواري؛ مما أوغر صدر صلاح الدين على العاضد ودفعه لاحقًا إلى التخلص منه بدس السم إليه.

هذا التضارب والتباين في تحديد ميعاد التوبة يؤول بنا إلى استنتاج علمي مفاده أن هذه التوبة، إن كانت قد وقعت حقًا، فإنما أُخرجت لأغراض التسويق السياسي الداخلي

وإضفاء الشرعية الدينية؛ إذ اقتضت مكانته الجديدة كوزير وسلطان متحكم أن يظهر بمظهر المتنسك الملتزم، على غرار ما نراه في العصر الحديث من إظهار بعض الطغاة المخلوعين للمظاهر الدينية، كما فعله صدّام من إطلاق اللحى أو حمل المصاحف داخل أروقة المحاكم استدرارًا للعواطف.

وفي هذا السياق، يبرز كتاب *النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة* للقاضي بهاء الدين بن شداد، وهو مصنف أُفرد بالكامل لمدح صلاح الدين الأيوبي والثناء على أصله، وعبادته، وزهده، وجهاده، كونه كان معاصرًا له ومنقطعًا إليه. ولكن سبحانه وتعالى يأبى إلا أن تظهر الحقائق من فلتات لسان المداحين؛ فحتى هذا الكتاب التبجيلي لم يستطع ستر حقيقة إدمان صلاح الدين وعمه على الملاذ وشرب الخمر قبل تملكه العرش.

يقول ابن شداد:

"**كان أسد الدين-** شيركوه- **كثير الأكل، شديد المواظبة على أكل اللحوم الغليظة، وتواتر عليه التخم والخوانيق، وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة، فأخذه مرض شديد**

واعتراه خانوق عظيم فقتله في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة في السنة المذكورة [سنة ٥٦٤ هـ]".

يتضح من هذا النص أن علة وفاته كانت بطنته وإفراطه في الطعام. ويمضي ابن شداد قائلًا:

"**وفوض الأمر بعده إلى السلطان** [صلاح الدين]، **واستقرت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام، وبذل المال وملك الرجال**".

وهنا نلحظ ممارسة سياسية معهودة؛ فالقائد في مستهل حكمه يعمد إلى إغداق العطايا وبذل الأموال لاستمالة قلوب الرجال وكسب الولاءات، وهي خصلة تشابهت فيها سلوكيات الحكام عبر التاريخ. بيد أن صلاح الدين، بعدما استتب له الأمر وقضى على بؤر المعارضة والتمرد، انقلب سياق حكمه إلى التضييق الإقتصادي، فأذاق الشعب المصري الويلات جراء المكوس والضرائب الجائرة التي كان يجبيها عماله، حتى تحول المجتمع إلى مجتمع يعاني المسغبة.

ويتابع ابن شدّاد في مدحه الصدوع بالحق من حيث لا يشعر:

"وهانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله عليه فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو"(١).

وهذا تصريح من أقرب المقربين إليه بأنه كان خمارًا ماجنًا يعكف على وسائل اللهو الملوكية من زنا أو لواط أو ما شاكل مما كان مستفيضًا في بلاطات السلاطين.

إن هذه الصورة الواقعية يجب أن تُعرض وتُذكر لأبناء المسلمين الذين لا يسمعون سوى المرويات المفتعلة والصفحات المضخمة عن القائد العابد المجاهد الفقيه، بينما يكشف الفحص الدقيق للتاريخ أن بدنه ودمه قد نَبَتا في شطر طويل من حياته على الخمر والرجس.

كيف وُلّي صلاح الدين أمور مصر؟

ويشرح المؤرخ ابن العديم في كتابه *زبدة الحلب في تاريخ حلب* مجريات تولية صلاح الدين في مصر مؤكدًا مسألة الخمر.

قال: **"فأرسل العاضد إلى صلاح الدين، وأحضره عنده، وولّاه الوزارة بعد عَمِّه، وخلع عليه، ولقَّبه بالملك الناصر،**

---

١ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة لابن شداد ص٨٠.

فاستتبَّت أحواله، وبذل المال، وتاب عن شرب الخمر، وأخذ في الجد والتشمير في أموره كلها (١)".

ويحق للباحث هنا أن يتساءل: كيف يُقدم خليفة يزعم التمسك بالتشيع الإسماعيلي على تولية رجل بكري العقيدة، نشأ في مدرسة نور الدين زنكي المعادية للشيعة؟

والجواب يكمن في أن هذا الصنف من الحكام لا يدين في حقيقة أمره بدين، بل تحركه هواجس البقاء السياسي؛ وهو عين ما نبتلى به في عصرنا الراهن من قِبل بعض الزعماء السياسيين المحسوبين على الشيعة، ممن لا يجدون غضاضة في مصافحة قتلة أبناء جلدتهم إذا اقتضت مصالحهم السياسية ذلك.

ونقول لهؤلاء المصافحين: إن سنن التاريخ جارية، وإن اليد التي تمتد لمصافحة العدو طمعًا في السلام الموهوم ستتلقى الطعنة ذاتها من الخلف؛ فذاك كان خطأ العاضد الإستراتيجي الذي دفع ثمنه حياته وملكه.

---

١ زبدة الحلب في تاريخ حلب ص٣٥١.

الغدر بالخلافة الفاطمية والتنكيل بأسرتها

لقد حظي صلاح الدين بمحبة عظيمة من قِبل الخليفة العاضد، الذي آثره وقدمه على أقرانه من قادة الجند الذين تطلعوا للوزارة، وظن العاضد أنه سيجني من وراء هذا الإحسان وفاءً، غير أن النتيجة جاءت على النقيض تمامًا.

يذكر المؤرخ أبو شامة المقدسي في كتابه *الروضتين في أخبار الدولتين*:

"**إن العاضد أحب صلاح الدين محبة عظيمة وكان مكرمًا له(١)**". ويعترف صلاح الدين نفسه بهذا الكرم كما ورد في *خطط المقريزي*حيث ينقل عنه قوله: "**وكان صلاح الدين يقول: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إليّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى ما أرسله إلي من الثياب وغيرها(٢)**".

إن مليون دينار بمقاييس القوة الشرائية في ذلك العصر تمثل ميزانية ضخمة للغاية، قد تفوق في تقديرنا المعاصر مئات الملايين من الدولارات، أرسلها إليه ليتصرف بها في

---

١ الروضتين في أخبار الدولتين ص١٨٦.

٢ خطط المقريزي ج١ ص٢١٥. ،

شؤون العسكر، هذا فضلًا عما أغدقه عليه من الثياب الفاخرة، والحلي، والجواهر، والتحف الهادفة.

ومع كل هذا الإكرام والحظوة، برزت خصلة اللؤم والجحود عند صلاح الدين؛ فما إن دارت الأيام وضَعُفت سلطة الخليفة العاضد، حتى استبد الوزير الأيوبي بمقاليد الأمور، وحجر على ولي نعمته، ومنعه من أي تصرف سلطاني، وعمد إلى إضعافه ماديًا ومعنويًا عبر تجريده من أمواله وخيوله ورقيقه شيئًا فشيئًا.

كيف غدر صلاح الدين بالعاضد؟

ويصور المقريزي هذا التضييق الجائر في *الخطط* بقوله:

"واستبد بالأمور، ومنع العاضد من التصرف..(وصلاح الدين يوالي الطلب منه كل يوم ليضعفه، فأتى على المال والخيل والرقيق، وعزّ ذلك حتى لم يبقَ عند العاضد غير فرس واحد فقط فطلبه منه وألجأه إلى إرساله، وأبطل ركوبه من ذلك الوقت، وصار لا يخرج من القصر البته)(١)".

---

١ الخطط للمقريزي ج١ ص٣٥٨.

إن هذا المسلك يمثل غاية النذالة الإنسانية والأخلاقية؛ فالرجل الذي تلقى من الخليفة مليون دينار، بخل عليه بفرس وحيد يركبه ليتنفس خارج أسوار قصره. ومثل هذا السلوك اللئيم يستوجب الإدانة الأخلاقية من الأمة، لا التمجيد والرفع من الشأن؛ إذ إن من أسباب تعاسة الأمة الإسلامية وتراجعها الحضاري هو عوجاج سليقتها الفكرية التي تدفعها لتمجيد الطغاة والأنذال.

ولم تقف حدود الإساءة عند الحجر على الخليفة حتى وفاته مكمودًا أو مسمومًا، بل تعدتها إلى التنكيل بذرية الأسرة الفاطمية من نساء وأطفال وبني عمومة.

وينقل أبو شامة المقدسي -وهو من المؤرخين المتعصبين المقربين لصلاح الدين، والذين لا يمكن اتهامهم بمحاولة تشويه سمعته، بل إنهم يروون هذه المخازي بدافع معتقداتهم الملتوية التي ترى في هذه الأفعال أمورًا سائغة- ينقل في كتابه *الروضتين* قوله:

"واحتاط السلطان على أهل العاضد وأولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد، وقرّر لهم ما يكفيهم، وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم".

والخادم قراقوش هذا، هو أحد معاوني صلاح الدين المقربين، وقد انطبع اسمه في الوجدان الشعبي المصري كمثال للجور والطغيان (حكم قراقوش)؛ لما اتصف به من توحش وجزارة في أحكامه وظلمه. ويضيف أبو شامة واصفًا قمة الجور واللؤم:

"وفَرّق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم(١)".

إن هذا الإجراء اللاإنساني المتمثل في الفصل بين الأزواج لمنع التناسل واستئصال السلالة بشريةً، لا يصدر إلا عن نفس لئيمة مجردة من قيم الكرم والنبل. ولم نجد في سيرة رسول الله -صلى الله عليه وآله- يوم فتح مكة أنه صنع هذا ببني أمية أو بأبي سفيان، ولا فعل ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -عليه السلام- بخصومه بعد معركة الجمل، بل كانت شيم الكرماء العفو والصفح، بينما شيمة اللؤماء الاستئصال والبطش.

وهنا نوجه الخطاب العقلاني لجمهور الطائفة البكرية: هل ترضون بأن تُعامل أسركم الحاكمة أو مشايخكم

---

١ الروضتين لأبي شامة المقدسي ص٢١٤.

ودعاتكم بمثل هذا الأسلوب الرخيص من الفصل بين الرجال والنساء لاستئصال شأفتهم إن مَلكنا زمام الأمور يومًا؟

بلا ريب ستعدون هذا الفعل طغيانًا ونذالة، فبأي مقياس ضميري تسيغونه لصلاح الدين وتحرمونه على غيركم؟ إن الميزان المبدئي يجب أن يكون واحدًا. ولو أن رئيسًا، وزيرًا معاصرًا كالمالكي في العراق -إبّان مواجهته لحركات التمرد- عمد إلى الفصل بين رجال المخالفين ونسائهم بغية إفنائهم، لكنا أول من يقف في وجهه ويدين مسلكه الدنيء؛ لأن هذه شيم الأنذال لا شيم أتباع أهل بيت النبوة -صلوات الله عليهم-.

فلماذا تستمرون في تبجيل هذا الرجل وتتذرعون بتحريره للقدس؟ إنكم تسقطون قيمة حسن نصر الله اليوم وتتناسون تحريره لجنوب لبنان لمجرد زجه بمقاتليه في الصراع السوري الداخلي، فلماذا لا تطبقون ذات المعيار التقييمي على صلاح الدين الأيوبي وتجريده من الحظوة جراء مجازره وتصرفاته الوحشية بحق الشيعة وعمال الدولة الفاطمية؟

لقد أثبتنا في الفصل السابق كيف عذب خازن الأموال الفاطمي بوضع الخنافس على رأسه وشدها بحجر لتحفر في جمجمته، وهو عذاب وحشي لا يطاق، ويسقط أي مشروعية أخلاقية يتدثر بها.

مصادرة حرية التعبير وإعدام الشعراء

إن الاستبداد الفكري والسياسي لصلاح الدين الأيوبي تجلى في مصادرته لأبسط حقوق التعبير والاعتراض، حيث وصل به الأمر إلى إعدام الشعراء لمجرد رثائهم للدولة الزائلة وتحسرهم على مجدها الغابر.

يسجل المقريزي في *الخطط* نقلًا عن المؤرخ ابن سعيد قوله:

"ولم يُسمع فيما بُكيت به دولة بعد انقراضها أحسن من قصيدة عمارة بن علي اليمني الذي قتله صلاح الدين(١)".

وعمارة اليمني هذا، كان شاعرًا فقيهًا قدم مصر، وحظي برعاية الخلفاء الفاطميين، فلما رأى زوال دولتهم وانقلاب الأيام عليهم، تحركت عاطفته ونظم قصيدة رثائية بليغة.

---

١ الخطط للمقريزي ج١ ص٤٩٦.

يقول في مستهلها:

رميتَ يا دهرُ كفَّ المجدِ بالشَّللِ

وجِيدَهُ بعدَ حُسْنِ الحَلْيِ بالعَطَلِ

إلى أن يقول متفجعًا:

لهـفي ولهفُ بني الآمَالِ قاطبةً

على فجيعتِنا في أكرمِ الدِّوَلِ

قَدِمْتُ مصرَ فأولَتْنِي خلائقُها

مـن المَكارِمِ ما أربى على الأمَلِ

يا عاذِلي في هَوى أبناءِ فاطمةٍ

لك المَلامةُ إن قَصَّرتَ في عَذَلِي

باللهِ زُرْ ساحةَ القَصْرينِ وابكِ معي

علـيهما لا على صِفِّينَ والجَـمَـلِ

مـرَرْتُ بالقَصْرِ والأركانُ خاليةٌ

وكانتِ القِبْلَةَ الأُولى لقِيلِ وَلِـي

فـمِلْتُ عنها بوَجْهِ خَوْفٍ مُنْتَقِـدٍ
من الأعـادي ووجْهُ الوُدِّ لم يَمِلِ

أسبَلْتُ من أسَفٍ دمعي غداةَ خَلَتْ
رحابُكم وغَدَتْ مهـجورةَ السُّبُلِ

أبكي على مأثُراتٍ من مـكارمِكم
حالَ الزَّمانُ عليها وهي لم تَحُلِ

إن هذا الشاعر لم يشهر سيفًا، ولم يتآمر مع قوى خارجية، ولم يقترف خيانة عظمى، بل كل جريرته أنه نظم أبياتًا ينعى فيها دولة أكرمته وقدمت له المكارم.

فماذا كان جزاؤه من "الملك الناصر"؟ كان جزاؤه عقوبة الإعدام والصلب. إن إزهاق النفس المحرمة بغير حق شرعي يوجب وعيد جهنم، وصلاح الدين بإقدامه على هذا الفعل قد استحق العقاب الإلهي.

ونقول للمخالفين الذين يتمنون خروج صلاح دين جديد: هل ترضون أن يعاملكم الشيعة بمثل هذا السلوك القمعي؟

صلاح الدين الأيوبي.. القصة التي لم ترَوَ

هل تقبلون أن نعدم كل من يكتب بيتين من الشعر يترحم فيهما على صدام حسين، أو يمتدح عمر بن الخطاب، أو يثني على عائشة؟ إن اعتبرتم هذا جورًا وظلمًا، فمن الحري بكم أن ترتفع أصواتكم بإدانة صلاح الدين وتجريده من عباءة العدالة.

إن مشاعر الأمة الشيعية قد طفح بها الكيل جراء استفزازكم المستمر برفع أسماء الطغاة والمجرمين؛ والسنن التاريخية تقتضي أن من يرفع لواء الظالمين يوشك أن يبتلى بمثل فعالهم. ونحن من منطلق مبدئي مستمد من عدل أهل البيت -عليهم السلام- نرفض سيرة صلاح الدين وندينها، وإذا مَلكنا زمام الحكم والسلطة، فلن نؤاخذ أحدًا على حرية تعبيره، ولن نعدم شاعرًا أشاد بعائشة أو صلاح الدين؛ فالبرهان العلمي والحقائق التاريخية هي سيدة الموقف، وجرائم أولئك الطغاة أثبت من أن تواريها قصائد المديح، فالناس عقلاء يبحثون عن الحقيقة.

إن الشيعة في العراق يعيشون حالة من السبات المعرفي؛ إذ يقبلون ببقاء اسم محافظة كاملة باسم "صلاح الدين" وهو قاتلهم ومبيد وجودهم في مصر، في حين لو أراد

الشيعة تسمية مدرسة أو شارع باسم أبي لؤلؤة النهاوندي لقامت الدنيا ولم تقعد من قِبل هيئات وهيئات كعبد الملك السعدي أو زعامات عشائرية كأبي ريشة وغيره، متهمين الحكومة بالطائفية.

إنني أطالب رسميًا بتطهير أرض العراق من أسماء أعداء أهل البيت، وتحويل اسم "منطقة المنصور" في بغداد إلى "منطقة جعفر بن محمد الصادق" -عليهما السلام- وتحويل "شارع الرشيد" إلى "شارع موسى بن جعفر الكاظم" -عليهما السلام- فهذه الرموز محل إجماع واحترام، بخلاف الشخصيات الخلافية التي تمثل جرحًا غائرًا في وجدان الأمة الشيعية.

صلاح الدين الأيوبي
والخيانة العظمى

نكبة الفاطميين واستباحة القصور والدور

تأتي هذه الورقة البحثية استكمالًا لما تم طرحه في القراءات التاريخية السابقة، والتي خصصناها لتسليط الضوء على الجوانب والصفحات المسكوت عنها في سيرة صلاح الدين الأيوبي.

وقد استعرضنا سلفًا جملة من الممارسات التي تكشف عن ملامح الخسة والدناءة والنذالة في سلوكه السياسي والعسكري؛ وكان من آخر ما وقفنا عليه في البحث الماضي هو موقفه من الأسرة الفاطمية بعد انقلابه على دولتهم، ومجازاته إياهم بنكران الجميل؛ إذ بعد أن استدعاه الفاطميون واستقدموا عمه أسد الدين شيركوه، وقلدوه

الوزارة في مصر، انقلب عليهم ونكّل بهم تنكيلًا شديدًا، فقام بفعلة خسيسة تمثلت في الفصل التام بين رجالهم ونسائهم في المحابس، قاصدًا بذلك منع توالدهم وتناسلهم، تعجيلًا بقطع دابرهم وإنهاء وجودهم التاريخي..

إجراءات الفناء العرقي في المنقول التاريخي!

وهذا ما وثقه المؤرخ أبو شامة المقدسي كما ذكرنا في كتابه "الروضتين في أخبار الدولتين"، حيث نص على الآتي:

"واحتاط السلطان على أهل العاضد وأولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد، وقرّر لهم ما يكفيهم، وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم وفَرّق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم(١)".

وإذا تتبعنا تفاصيل هذه الواقعة، فإننا نجدها أكثر وضوحًا وبشاعة في كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" للمقريزي؛ (ذكر ما كان من أمر القصرين والمناظر بعد زوال الدولة الفاطمية)، تفاصيل تصفية الوجود الفاطمي؛ إذ يقول:

---

١ الروضتين لأبي شامة المقدسي ص٢١٤.

"ولما مات العاضد لدين الله في يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة -واتفاق وفاته في يوم عاشوراء هو ما أجمع عليه المؤرخون، وهو آخر الخلفاء الفاطميين- **احتاط الطواشي قراقوش(١)على أهل العاضد وأولاده، فكانت عدة الأشراف في القصور مائة وثلاثين، والأطفال خمسة وسبعين، وجعلهم في مكان أُفرد لهم خارج القصر، وجمع عمومته وعشيرته في إيوان بالقصر، واحترز عليهم، وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا، وليكون ذلك أسرع لانقراضهم.**

---

١ هو بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدي، وهو أمير نشأ في خدمة صلاح الدين الأيوبي، وناب عنه في الديار المصرية، وكان مولعًا بالعمران، بنى السور المحيط بالقاهرة، والقناطر التي بالجيزة، ولاه صلاح الدين على عكا، ولما استعادها الإفرنج أسروه، فافتكه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار، وفرح به فرحًا عظيمًا. توفي سنة ٥٧٧هـ. (راجع خطط المقريزي ج٣ ص١٦٩.

النهب الاقتصادي للممتلكات والاستعباد غير الشرعي

يمضي المقريزي في سياق تاريخه ليوضح كيف تسلّم صلاح الدين يوسف بن أيوب القصور الفاطمية بعد إزالة دولتهم، فيقول:

"و تسلم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب القصر، بما فيه من الخزائن و الدواوين، و غيرها من الأموال و النفائس، و كانت عظيمة الوصف، و استعرض من فيه من الجواري و العبيد، فأطلق من كان حرّا، و وهب و استخدم باقيهم".

وهنا يظهر ملمح النقد الفقهي والشرعي لتصرفه، إذ إن هؤلاء العبيد والجواري لا ينتقل ملكهم شرعًا إلى صلاح الدين بمجرد التغلب العسكري، بل يبقى ملكهم لمالكهم الأصلي؛ وبالتالي فإن قيام الحاكم المتغلب باسترقاقهم، أو الاستيلاء على الجواري ووطئهن، يعد تصرفًا محاطًا بالحرمة الشرعية ولا يجوز في الفقه الإسلامي.

ويشير المقريزي كذلك إلى أنه: **"أطلق البيع في كل جديد، و عتيق".**

آمـرًا بجـرد كـل الـنفائـس وبـيعها، وهـو تـصرف آخـر يـثير تساؤلات فقهية حول مشروعية بيع ممتلكات أسرة بأكملها من قِبل حاكم متغلب دون تتبع الأوجه الشرعية للملكية.

"فاستمرّ البيع فيما وجد بالقصر، عشر سنين".

نظرًا لكثرة الأموال والتحف والمصاغ، حتى جُردت القصور تمامًا.

"و أخـلى الـقصور مـن سـكانـها، و أغـلق أبـوابـها، ثـم مـلكها أمـراءه ضـرب الألـواح على مـا كـان للخـلفاء و أتـباعـهم مـن الدور و الرباع، و أقطع خواصه منها، و باع بعضها ثم قسم القصور، فأعطى القصر الكبير: للأمراء فسكنوا فيه، و أسكن أبـاه نجـم الـديـن أيـوب بـن شـادي فـي قـصر الـلؤلـؤة على الخليج"- والجدير بالذكر أن والد صلاح الدين كان حيًا في ذلـك الـوقـت، ولـنا مـع شـخصيته وقـفة تـاريـخية لاحـقة- والـمتحصل مـن ذلـك أن الـوالـد نـال قـصرًا فخـمًا دون عـناء بفضل سلطة ابنه.

تجريد الدور والهتك الممنهج للحرمات

يـتابـع الـمقريـزي ويـقول: **"و أخـذ أصـحابـه دور مـن كـان ينسب إلى الدولة الفاطمية".**

فلم يقتصر الأمر على استملاك القصور الكبرى، بل تعداه إلى الاستيلاء على دور سائر المنتسبين للدولة الفاطمية، دون تفريق بين رتبهم؛ فشمل ذلك وزراءهم، ومستشاريهم، وكتابهم، وحتى البُسطاء من العاملين والفراشين والخدم؛ إذ كان أصحاب صلاح الدين يستولون على دار كل من له صلة بالعهد الفاطمي البائد.

ويوصف المشهد الاجتماعي آنذاك بالقول:

"فكان الرجل إذا استحسن دارًا أخرج منها سكانها ونزل بها"(١)!

أي إن قادة جيش صلاح الدين، بدافع القهر والغلبة والقوة، كانوا يقتحمون الدور السكنية المملوكة شرعًا لأفراد بمجرد استحسانهم لها، فيطردون أصحابها ويستوطنونها دون وازع من حق أو شريعة.

وينقل المقريزي عن الحافظ جمال الدين يوسف اليغموري، عما وجده بخط المهذب أبي طالب محمد بن

---

١ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي ج٢ ص٤٤٨.

علي بن الخيمي، عن الأمير عضد الدين مرهف بن مجد الدين سويد الدولة بن منقذ:

"أن القصر أغلق على ثمانية عشر ألف نسمة، عشرة آلاف شريف و شريفة، و ثمانية آلاف عبد، و خادم و أمة و مولدة و تربية"(١).

وهذا الرقم الهائل يوضح حجم الحجر والاعتقال الذي فرضه صلاح الدين على الفاطميين، مركّزًا سياسته الانتقامية على التفريق الممنهج بين الرجال والنساء لضمان انقراضهم.

"و قال ابن عبد الظاهر عن القصر لما أخذه صلاح الدين، و أخرج من به كان فيه اثنا عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل، إلّا الخليفة، و أهله، و أولاده و لما أخرجوا منه، أسكنوا في دار المظفر قبض أيضا صلاح الدين على الأمير داود بن العاضد و كان وليّ العهد و ينعت بالحامد للّه".

ثم اعتقل قراباتهم وبني عمومتهم، وجعلهم في السجون المؤبدة حتى الفناء.

ثم يمضي المقريزي فيقول:

---

١ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي ج٢ ص٤٥٠.

"قال القاضي الفاضل و في يوم الاثنين سادس شهر رجب، يعني من سنة أربع و ثمانين و خمسمائة ظهر تسحب رجلين من المعتقلين في القصر".

نجح رجلان من المعتقلين الفاطميين في الهروب من محبس القصر الذي تحول عبر السنين إلى معتقل يخضع للإقامة الجبرية.

" أحدهما من أقارب المستنصر، و الآخر من أقارب الحافظ، و أكبرهما سنا كان معتقلا بالإيوان حدث به مرض، و أثخن فيه، ففك حديده و نقل إلى القصر الغربيّ في أوائل سنة ثلاث و ثمانين، و استمرّ لما به، و لم يستقل من المرض، و طلب ففقد، اسمه: موسى بن عبد الرحمن أبي حمزة بن حيدرة بن أبي الحسن أخي الحافظ، و اسم الآخر: موسى بن عبد الرحمن بن أبي محمد بن أبي اليسر بن محسن بن المستنصر، و كان طفلًا في وقت الكائنة بأهله، و أقام بالقصر الغربيّ مع من أسر به إلى أن كبر و شب.

وفي وصف حالة المعتقل:

"قال: و ذكر أن القصر الغربيّ قد استولى عليه الخراب، و علا على جدرانه التشعث، و الهدم، و إنه يجاور اصطبلات فيها جماعة من المفسدين، و ربما تسلق إليه للتطرّق للنساء المعتقلات (١)".. فكان هؤلاء يتسلقون الجدران للإشراف والتطلع على النساء المعتقلات من الشريفات الفاطميات!

إن هذا التعامل يمثل انحطاطًا في السلوك السياسي والأخلاقي؛ إذ كيف ينحدر حاكم إلى مستوى يعرض فيه نساء الحكام السابقين لمثل هذه الإهانة، والابتذال، وهتك الأستار؟ ولم تكن لهن جريمة في صراع السلطة. أين هذا المسلك من سيرة الرسول الأكرم -صلى الله عليه وآله-، أو سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -عليه السلام-، أو سيرة ذوي المروءة والكرم من الحكام؟ إن تعريض عشرة آلاف شريفة مسلمة، ينتسبن إلى بيت النبوة، لمثل هذا الهتك والتطلع من قِبل الفساق يعد وصمة عار تاريخية لا يمكن تبريرها تحت أي غطاء مذهبي أو سياسي.

---

١ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي ج٢ ص٤٥١.

ازدواجية المعايير في التقييم التاريخي

إذا نظرنا إلى الواقع المعاصر، نجد أن بعض الحركات السياسية والاجتماعية (كالمخالفين في العراق في مناطق الأنبار وغيرها) يرفعون لافتات المظلومية والانتفاضة بناءً على ادعاءات بانتهاك حرمات النساء السجينات، ويعتبرون اعتقال النساء أو تعرضهن للإذلال أمرًا شائنًا وعارًا كبيرًا -وهو بلا شك أمر معيب ومرفوض شرعًا وأخلاقًا؛ فنحن نرفض مبدأ الانتقام من النساء، كأن تعتقل السلطة زوجة المطلوب أو ابنته أو أخته للضغط عليه لتسليم نفسه، فهذه أساليب دنيئة لا يلجأ إليها أصحاب المروءة، ولم يفعلها رسول الله صلى الله عليه وآله مع أعدائه قط في الحروب!

فالمرأة لا تعاقب إلا إذا باشرت الجريمة بنفسها، أما أن تعتقل لجريرة زوجها أو أبيها فذلك مسلك الأراذل.

ولكن وجه الازدواجية يكمن هنا: إذا كان الاعتراض على مثل هذه السلوكيات في العصر الحالي مشروعًا، فلماذا لا يتم تطبيق نفس المعيار الأخلاقي والمبدئي على صلاح الدين الأيوبي؟

لماذا يُبجل ويُقدس من صنع بالفاطميات عين ما يُنكر اليوم على الأنظمة المعاصرة (كحكومة المالكي السابقة على سبيل المثال)؟ إن صلاح الدين قد وضع الشريفات في حبوس مستهدفة من أهل الفجور، فمن كان يملك مبدأً واحدًا ثابتًا، ينبغي عليه أن يتبرأ من أفعال صلاح الدين ويطالب بإزالة اسمه الذي يطلق على المحافظات والمعالم، تمامًا كما يدين الممارسات المعاصرة.

وحدة المعيار الأخلاقي في الفكر الشيعي

إن المبدئية تقتضي تطبيق مسطرة نقدية واحدة على الجميع، دون محاباة بناءً على الدين أو المذهب. ونحن في متبنياتنا نزن الأمور بميزان الحق؛ فكما نقف ضد تجاوزات الأنظمة البكرية، فإننا لا نمنح الشرعية المطلقة للأنظمة الشيعية، ولا نقول بعصمتهم من الخطأ أو الظلم. وكذلك الحال في تقييمنا للأوضاع في إيران ومواقف حكومتها الجائرة؛ فالمعيار واحد، والهدف هو الانحياز للحق دائمًا سواء كان لنا أو علينا، وهذا هو الاختبار الإلهي الصعب الذي يسقط فيه الكثيرون.

ومع الأسف، فإن الطرف الآخر يسقط في هذا الاختبار باستمرار؛ فإذا وقع الجور عليهم صرخوا وأدانوا، وإذا وقع على غيرهم صفقوا له وبرروه.

ولو أجرينا مقارنةً بصرية، فقسمنا شاشةً إلى نصفين، وعرضنا في أحدهما ما مارسته قوات آل سعود وآل خليفة بحق المتظاهرين السلميين من قمعٍ عنيف، وإطلاقٍ للرصاص والغازات الخانقة، ودهسٍ بالآليات، ثم وضعنا فوق المشهد عبارة: «وحشية وانتهاك لحقوق الإنسان»، وعرضنا في النصف الآخر ما ارتكبته الأجهزة الأمنية في إيران خلال الاحتجاجات السلمية التي أعقبت الانتخابات الرئاسية المعروفة بأحداث الحركة الخضراء، حين خرج المحتجون اعتراضًا على نتائج الانتخابات التي أُعلن فيها فوز أحمدي نجاد على حساب مير حسين موسوي؛ مع التنبيه إلى أن الحديث هنا لا ينطلق من تأييدٍ للحركة الخضراء أو لرموزها، كالموسوي والكروبي، ولا من الانحياز إلى أيٍّ من أطراف الصراع هناك، وإنما من منطلقٍ مبدئيٍ خالص يتعلق بمعيار العدل والظلم.

فإن الناظر المنصف سيجد أن صورة الفعل في الحالتين واحدة إلى حدٍّ بعيد. ففي البحرين خرج متظاهرون سلميون غير مسلحين، فقوبلوا بالقمع والعنف، وفي إيران خرج متظاهرون سلميون غير مسلحين كذلك، فقوبلوا بالقتل والدهس والاعتداء والبطش نفسه.

وعليه، فما الفارق المبدئي بين الحالتين؟ ولماذا يُدان القمع في البحرين بوصفه ظلمًا وانتهاكًا للحقوق، بينما يُبرَّر الفعل ذاته عندما يصدر عن النظام الإيراني تحت عناوين من قبيل حفظ الأمن أو حماية النظام؟

إن الموقف المبدئي يقتضي رفض الظلم حيثما وقع، بصرف النظر عن هوية الفاعل أو انتمائه السياسي أو المذهبي.

فالظلم لا يتبدل حقيقته بتبدل الجهة التي تمارسه، والعدل لا يعرف ازدواجية المعايير. ومن هنا فإن إدانة القمع ينبغي أن تكون شاملة لكل من يمارسه، سواء وقع في البحرين أو السعودية أو إيران، وإلا تحولت المواقف إلى انتقائية تحكمها الأهواء والانتماءات لا المبادئ والقيم.

السياسة الاقتصادية وتجويع الشعب المصري

إذا انتقلنا من ملف تصفية الخصوم إلى ملف السياسة الداخلية وإدارة شؤون الشعب المصري وعموم الرعايا تحت حكم صلاح الدين، فإننا نكتشف وجهًا آخر مغايرًا للصورة المثالية المصنوعة له.

لقد مَرّ معنا أنه في بداية تسلمه السلطة، قام بتخفيف بعض الضرائب وبذل الأموال، وهو تكتيك سياسي معتاد يلجأ إليه الحكام المتغلبون في بداية عهدهم لاستمالة القلوب وتثبيت أركان حكمهم (شبه "المكرمات الملكية أو الأميرية")، ولكن بمجرد أن استتب له الأمر واستقر سلطانه، فرض نظامًا ضريبيًا وجباية قاسية أضعاف ما رفعه سابقًا.

والشهادة التاريخية التي نسوقها في هذا الصدد ليست من مصادر خصومه، بل هي شهادة أكاديمية رصينة صادرة عن مؤرخ مصري معاصر متضلع وخبير معتبر في التاريخ الإسلامي، وهو الدكتور حسين مؤنس، والذي يُعد مرجعًا كبيرًا، وهو المشرف العام على إعداد وتأليف "أطلس التاريخ الإسلامي". والدكتور حسين مؤنس يُصنف تاريخيًا من أنصار صلاح الدين وممن يعتبرونه بطلًا قوميًا وإسلاميًا، ولكنه

كباحث سجل بعض المؤاخذات المنصفة، على عكس مؤرخين قدامى كالمقريزي الذين أوردوا المخازي معتبرين إياها أمورًا طبيعية بسبب مسخ العقليات.

يقول الدكتور حسين مؤنس في دراسة نشرتها "مجلة الثقافة" مبينًا سيرة صلاح الدين في الحكم وسياسته المالية:

"وقد كان صلاح الدين لا يكاد يتشمم ريح خطر من ناحية إلا تغيرت نفسه، وغاضت فيها عيون الحلم والصبر. وكانت مشاريعه ومطالبه متعددة لا تنتهي، فكانت حاجته للمال لا تنتهي أيضًا. وكان عماله وجباته من أقسى خلق الله على الناس؛ ما مر ببلد تاجر إلا قصم الجباة ظهره، وما بدت على إنسان علامة من علامات اليسار إلا أُنذر بعذاب من رجال السلطان. وكان الفلاحون والضعفاء معه في جهد؛ ما أينعت في حقولهم ثمرة إلا تلقفها الجباة، ولا بدت سنبلة قمح إلا استقرت في خزائن السلطان".

إن هذه الشهادة تكشف أن صلاح الدين استنزف ثروات الشعب المصري -الذي هو في أغلبه شعب فلاحي بسيط يعيش على كد يده- فكان الجباة يصادرون أقواتهم

ومحاصيلهم بمجرد نضجها لملء خزائن السلطان وتمويل مشاريعه التوسعية، مما أدى إلى تجويع الشعب ونهب مقدراته.

ويضيف الدكتور مؤنس:

"حتى أملق الناس في أيامه وخلفهم على أبواب محن ومجاعات حصدت الناس حصدًا"[1].

فالأزمات الاقتصادية والمجاعات التي ضربت مصر في عهده كانت نتاجًا مباشرًا لجشعه السياسي والمالي الذي دمر حياة العوام. ومع ذلك، فإن الخطاب التاريخي المعاصر عندما يتناول شخصية صلاح الدين بوصفه "فاتح القدس"، يتعمد إغفال هذه الحقائق المأساوية، ولا يتطرق إلى تجويع شعب بأكمله من أجل نزوات السلطة؛ وكأن الإنجاز العسكري الخارجي يبرر إبادة الرعايا جوعًا.

وهنا نوجه الخطاب للمدافعين عنه: إذا كنتم لا ترون ضيرًا في هذا السلوك السلطوي لصلاح الدين، فلماذا ثرتم على معمر القذافي في ليبيا بحجة استئثاره بالثروة وتحكم عائلته بمقدرات الشعب؟ ولماذا ثرتم على حسني مبارك في

---

[1] راجع مجلة الثقافة (العدد ٤٦٢).

مـصر بـدعـوى اسـتئثاره بـالـمليارات وتـخصيص الـمنافـع لـحاشـيته وأبـنائـه (جـمال وعـلاء) وصهـره؟ عـلمًا أن حـسني مـبارك هـو مـن أعـاد سـيناء للسـيادة الـمصريـة؛ فـلماذا لـم تشفع له هذه المأثرة العسكرية والوطنية، وجعلتموه يُقاد إلى المحاكم على سرير طبي كالمومياء المحنطة؟

إن الـمبدئـية تـقتضي إدانـة صـلاح الـديـن الأيـوبـي بـنفس الـمعايـير الـتي أُديـن بـها الـقذافـي ومـبارك، نـظرًا لـكونـه مـن أقسى خلق الله على رعاياه.

الخيانة العظمى والتحالف مع الصليبيين ضد نور الدين زنكي

دوافع التمرد وسياقات التراجع العسكري

يكشف التحقيق التاريخي في الصفحة الثالثة من سيرة صلاح الدين، أن معاركه المروجة ضد الصليبيين لم تكن خالصة لوجه الله تعالى أو بدافع ديني صرف، بل كانت لتوظيف التاريخ واستثمار القضية سياسيًا لتثبيت سلطانه الشخصي؛ فقد أراد مجدًا ذاتيًا يُخلده كـ "مسترد للقدس" نظرًا لمكانتها الوجدانية لدى المسلمين، في حين أنه لم يكن يكترث بتحرير بقية الأراضي الإسلامية كواجب شرعي إلا بالقدر الذي يخدم توسيع رقعة حكمه، بل وصل به الأمر إلى

حد الاحتماء بالصليبيين واستبقائهم والتنازل لهم عن أراضٍ إسلامية لصد أي خطر يهدد كرسيه.

وتتجلى هذه الخيانة العظمى في علاقته بسيده وولي نعمته السلطان نور الدين زنكي (حاكم الشام)، وهو الرجل الذي اصطنع صلاح الدين، ولولاه لما كان له ذكر في التاريخ؛ فنور الدين هو من أرسله مع عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر بطلب واستنجاد من الخليفة الفاطمي العاضد لإنقاذ البلاد من الغزو الصليبي، وهو الذي عينه أميرًا على الجند وأبقاه نائبًا وعاملًا له على مصر، وكانت المرجعية العليا والسلطة الشرعية لنور الدين زنكي لا لصلاح الدين.

وعندما عزم نور الدين زنكي على خوض حرب شاملة لاستئصال الوجود الصليبي تمامًا من فلسطين، ولبنان، وأعالي الشام، وأنطاكيا، اتفق مع تابعه صلاح الدين على خطة عسكرية تقضي بإنفاذ جيش مصر ليلتقي بجيش الشام، وتطبق القوتان على الصليبيين.

تحرك صلاح الدين بجيشه ووصل إلى النقطة المتفق عليها (حصار حصن الشوبك) قبل وصول نور الدين، ولكنه فجأة قرر التراجع والانسحاب؛ والسبب في ذلك يعود إلى

نصيحة مستشاريه الذين نبهوه إلى خطر سياسي يهدد انفراده بحكم مصر، حيث قالوا له ما معناه: "إنك إذا اجتمعت مع نور الدين زنكي في رقعة واحدة، وانتصرتما معًا على الصليبيين وأُزيلت مملكتهم من فلسطين، فلن يبقى عائق جرافي يفصل بين الشام ومصر، وستتحول المنطقة إلى دولة متصلة تخضع لحكومة مركزية واحدة يقودها نور الدين زنكي، وحينها ستعود أنت إلى رتبتك السابقة كمجرد قائد عسكري من قواده، وتفقد سلطتك المطلقة وهيمنتك على ثروات مصر؛ فالأصلح لك سياسيًا هو استبقاء الصليبيين في مواقعهم ليكونوا عازلًا يحميك من تمدد سلطة نور الدين زنكي".

إن هذا السلوك يطرح تساؤلًا جوهريًا: هل يُعد الحاكم الذي يحتمل الاستعانة بالكفار والأعداء واستبقاءهم لحماية كرسيه بطلًا إسلاميًا أم خائنًا للأمة؟

إن هذا هو عينه المأخذ الذي تأخذه الشعوب العربية اليوم على أمراء وحكام الخليج منذ حرب احتلال الكويت، حيث أقدموا على الاستعانة بالقوات الغربية والنصرانية وأسكنوا المشركين في جزيرة العرب -وهو الأمر الذي كان

منطلقًا لتحركات أسامة بن لادن وغيره تحت شعار إخراج المشركين- فكيف يُدان حكام العصر الحالي بالخيانة لاستعانتهم بالقوى الخارجية (مثل جورج بوش أو جون ميجر في مواجهة صدام حسين)، بينما يُعذر صلاح الدين في استبقائه للصليبيين لضرب وحدة الدولة الإسلامية؟

وهنا نرى تعجبًا من مسلك الإعلام التسنني (البكري) الذي يتجاهل هذه الخيانات الموثقة، ويركز هجومه على الشيعة بادعاء أنهم جاءوا إلى السلطة في العراق على ظهور الدبابات الأمريكية وأعدموا من يسمونه "الشهيد البطل صدام حسين"؛ فإذا كانت تهمة العمالة لأمريكا قائمة، فلماذا يصمت هذا الإعلام عن أسرة آل الصباح في الكويت الذين لولا التدخل الأمريكي لما عادوا للحكم ولكانت الكويت المحافظة التاسعة عشرة للعراق؟

ولماذا لا يُتحدث عن آل سعود؟ ولماذا تقتصر ألسنتهم على استهداف الشيعة؟ علمًا بأن من فتح أبواب المنطقة، وقناة السويس، ومضيق باب المندب، والخليج للقواعد الأجنبية هم هؤلاء الحكام. ومن عقد صفقات الصلح والاستسلام مع الكيان الصهيوني هم قادتهم؛ واليوم يرفرف

العلم الإسرائيلي في عواصمهم، كما كان يرفرف في القاهرة حتى في ظل حكم محمد مرسي (الذي روجوا له كخليفة راشد وجاء بأجندة الإخوان المسلمين لتحرير الأقصى)، ولم نرَ من وعودهم إلا انهيارًا اقتصاديًا في مصر، حتى بات العوام يترحمون على عهد حسني مبارك لغياب الأمن والأقوات وتبخر الوعود، وانتهى الأمر بانقلاب السلفيين أنفسهم على مرسي وانضمامهم لحركة "تمرد" لإسقاطه في تظاهرات مليونية.

إن التاريخ الشيعي، بحمد الله، تاريخ مشرق لم يشهد تحالفًا مع الأعداء التاريخيين للأمة؛ وحتى الأحداث الأخيرة في العراق كانت خارجة عن الإرادة والسيطرة، وتعامَل معها الشيعة كأمر واقع لغياب البدائل تجاه نظام صدام حسين الذي كان ربيبًا للغرب قبل أن ينقلبوا عليه.

والشيعة لم يستدعوا جورج بوش، بل إن الطرف الآخر هو من استدعاه لحماية الخليج. والادعاءات التاريخية التي يروجها البكرية وخصوم الشيعة حول نصير الدين الطوسي وابن العلقمي بأنهم هم من استدعوا المغول وهولاكو لإسقاط بغداد هي أكاذيب تاريخية داحضة؛ فالواقع التاريخي

يثبت أن موقف علماء الشيعة آنذاك كان كموقف المرجعيات الدينية المعاصرة، وهو التسليم بالوضع القائم درءًا للمفاسد بعد سقوط الخلافة العباسية نتيجة عجز خليفتهم المستهتر؛ فالخليفة العباسي كان مشغولًا بالملذات والجواري والخمور، وكان يقطع أعناق من يحذرونه من زحف هولاكو، حتى تذكر الروايات أن السهام المغولية دخلت شرفة قصره وهو في أحضان جواريه.

أما المحقق نصير الدين الطوسي فقد استطاع بحنكته وذكائه التغلغل في أوساط المغول ودفعهَم لاعتناق الإسلام عبر خطة حكيمة وفقنا الله لتفصيلها في بحوث قادمة.

فموقف الشيعة تاريخيًا هو الأشرف، ولا يُعرف عنهم الاستقواء بالأجنبي ضد أبناء الأمة رغم ما يلاقونه من اضطهاد.

ولنا في تاريخ العراق المعاصر شواهد؛ فعند دخول الاحتلال البريطاني في عهد الاستعمار، حاول البريطانيون استمالة زعماء الشيعة الذين كانوا يُعاملون في ظل الدولة العثمانية كمواطنين من الدرجة العاشرة (يقتلون وتُسلب أموالهم ويُضطهدون ويُهانون بشكل ممنهج يراه كل من

يقرأ تاريخ العثمانيين في العراق)، ورغم هذا الظلم العثماني المرير، عندما عرض البريطانيون على الشيعة التخلص من الحكم العثماني مقابل الوقوف معهم، أصدر علماء الشيعة فتوى تاريخية شهيرة بوجوب الجهاد ضد الاستعمار البريطاني الوافد من وراء البحار، وترفعوا عن الاستنصار بالأجنبي ضد الدولة العثمانية رغم ناصبيتها؛ فأين نجد مثل هذا الموقف المبدئي عند الطرف الآخر؟

إننا نرى اليوم أنه لو شُنت حرب على إيران، فإن أغلب المخالفين سيصفقون ويهللون لنصرة أمريكا و إسرائيل، لمجرد التخلص مما يسمونه "الرافضة المجوس"، ويدعون لهم في السر والعلن دون حياء(١).

ونحن، رغم مؤاخذاتنا الشرعية الكثيرة على النظام الحاكم في إيران باعتبارنا معارضة دينية ورأينا منه الويلات، لا تسمح لنا مبادئنا الأخلاقية والدينية أن نقف مع الغرب أو نصفق له إذا غزا إيران أو أراد إسقاط حكومتها؛ لأن الغرب لا

---

١ ولعمري، لقد كان شيخنا ذا نظرةٍ ثاقبةٍ وبصيرةٍ نافذة؛ إذ تنبّأ بهذا الأمر قبل سنين طويلة، يوم كان كثيرون يستبعدون مثل هذا المشهد ويعدّونه من ضروب المبالغة. وها نحن اليوم نرى ما كان يُتحدَّث عنه هاهنا على سبيل التوقع قد أصبح واقعًا مشاهدًا، فللّه دره!

صديق له إلا الدولار والنفط ومصالحه، ونحن نحرص على المبدئية واحترام ديننا وإسلامنا.

وبالعودة إلى صلاح الدين، نجد أنه يمثل نموذجًا للحاكم الخائن الذي يحتمي بالأعداء؛ فهو لم يحتمِ بالصليبيين ضد الشيعة أو ضد "المجوس والصفويين" (الذين لم يكن لهم وجود في عصره)، بل احتمى بالصليبيين الكفار ضد أهل مذهبه وضد مربيه وسيده السلطان نور الدين زنكي، الذي يمتلك مكانة عظيمة في أدبيات المخالفين حيث يعدونه "الخليفة الراشد السادس" بعد عمر بن عبد العزيز لإظهاره العدل -وإن كان عدله مبنيًا على ارتكاب حرب إبادة طائفية وتطهير عرقي ضد الشيعة في حلب والشام، وهي في نظرهم حسنة تمحو كل سيئة، تمامًا كما يترحمون اليوم على صدام حسين لحسنة واحدة في نظرهم وهي تضييقه الخناق على الشيعة في العراق.

التوثيق التاريخي لواقعة التراجع من المصادر البكرية

لإثبات واقعة خيانة صلاح الدين لنور الدين زنكي وتراجعه عن قتال الصليبيين، نستعرض النصوص من ثلاثة من أهم مصادرهم المعتمدة:

المصدر الأول: "زبدة الحلب في تاريخ حلب" لابن العديم (وهو من أنصار صلاح الدين)، إذ يذكر تحت عنوان (تراجع صلاح الدين الأيوبي) ما نصه:

"وسار الملك الناصر من مصر غازيًا[1] فنازل حصن الشوبك وحصره[2]، فطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام، فلما سمع نور الدين بذلك سار من دمشق، فدخل بلاد الفرنج من الجهة الأخرى فقيل للملك الناصر: إن دخل نور الدين من جانب وأنت من هذا الجانب، مَلك بلاد الفرنج[3]، فلا يبقى لك معه بديار مصر مقام[4] وإن جاء وأنت هاهنا فلا بد لك من الاجتماع به ويبقى هو المتحكم فيك بما شاء، والمصلحة الرجوع إلى مصر. فرحل عن الشوبك إلى مصر وكتب إلى نور الدين يعتذر".

و تثير هذه المسألة علامات استفهام كبرى في مسار البحث التاريخي؛ إذ كان بالإمكان -حين النظر في المعطيات

---

١ الملك الناصر هو صلاح الدين.

٢ وكان فيه الصليبيون.

٣ وهي المناطق التي استولى عليها الصليبيون في فلسطين ولبنان.

٤ لأن المنطقة ستتحد إداريًا وسيقصيك نور الدين لأنه قائدك الأعلى، فخَلِّ بينك وبين الصليبيين حتى يتشاغل بهم وتنفرد أنت بحكم مصر.

العسكرية آنذاك- لو اجتمعت القوتان العسكريتان العظيمتان اللتان كان يمتلكهما كل من نور الدين زنكي في الشام وصلاح الدين الأيوبي في مصر، بما تشتملان عليه من جحافل العساكر والجيوش والعتاد، أن يُنهى الوجود الصليبي في المنطقة إنهاءً جذريًا وتامًا !

غير أن القراءة لسياسة صلاح الدين الأيوبي تكشف عن أنه آثر الإبقاء على هذا الوجود الصليبي في بعض المواقع، وهو الأمر الذي مكّن الصليبيين في فترات لاحقة من استرداد بيت المقدس كما سيتضح لاحقًا.

وتُعزى هذه السياسة في الواقع التاريخي إلى تقديم مصلحة الحفاظ على السلطة، والنفوذ، وبسط الحكم، والتمسك بالكرسي على سائر المصالح الأخرى؛ وهي النزعة التي تشابه في منطلقها سلوك بعض الحكام والزعماء في العصر الحديث، الذين تتركز غايتهم القصوى في الحفاظ على عروشهم وكراسيهم، فلا يجدون غضاضة في عقد الصلح مع الكيان الصهيوني، أو استقدام الاستعمار الجديد، أو ممارسة الخيانة والاحتماء بالأعداء وإطلاق أيديهم في

مقدرات الأمة، شريطة أن يضمن الحاكم بقاءه في سدة الحكم مستمتعًا بملذاته الشخصية وسلطانه.

وهذا الواقع ينطبق على سيرة صلاح الدين الأيوبي؛ إذ كان في أول أمره خمّارًا يشرب الخمر كما عرفنا.. ثم أظهر التوبة والتدين لاحقًا، في مسار سياسي واجتماعي يشبه إلى حد كبير ما عُرف بـ "الحملة الإيمانية" التي أطلقها صدام حسين في أواخر عهده لإظهار التدين وكسب الشرعية.

وحين ترك صلاح الدين محاصرة الصليبيين وجهادهم، كتب إلى نور الدين زنكي معتذرًا بمسوغات يدرك تمامًا أنها كفيلة بإقناعه وإسكاته، أنه اضطر للعودة على وجه السرعة بسبب اختلال أمور الديار المصرية عقب رحيله عنها.

يقول: "**وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال أمور الديار المصرية وأن شيعتها عزموا على الوثوب بها**".

وهو ادعاء كاذب ومجافٍ للحقيقة. بيد أن العبارة الواردة تنطوي على دلالة لطيفة وعميقة جدًا؛ فإضافة الشيعة إلى الديار المصرية في عبارة "شيعتها" تعد اعترافًا تاريخيًا صريحًا بأن الأغلبية الساحقة والامتداد الطبيعي للشعب المصري آنذاك كان يدين بالمذهب الشيعي، وأنه كان شعبًا

مقهورًا مغلوبًا على أمره فرضت عليه العقيدة المخالفة بالقوة والقمع من قبل صلاح الدين، وهو ما جرى إثباته بالتفصيل في الأوراق البحثية السابقة.

وبناءً على هذه الحقائق التاريخية الدامغة، فإن الادعاءات التي يروج لها المتنطعون اليوم بأن مصر كانت عبر تاريخها "حامية التسنن"، أو أن الجامع الأزهر هو حامي حِمى المذهب البكري، تعد مغالطة تاريخية ومفارقة مضحكة؛ إذ إن الأزهر في أصله التاريخي والشرعي وقف شيعي فاطمي خالص، جرى غصبه واحتلاله وتغيير هويته ومذهبه بقوة السلاح والسلطان الغاشم.

الهوية التاريخية للأزهر

إن قيام جهة سياسية أو عسكرية بمصادرة مؤسسة علمية وتغيير هوية أوقافها يشبه فرضًا جدليًا -من باب تقريب الصورة لعقول الخصوم- بأن يأتي نظام ما فيستولي على "جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية" في الرياض ويغير مناهجها ويطلق عليها اسم "حامية الرفض والتشيع في العالم"، وهو أمر يرفضه المنطق والعقل البشري بداهة!

فالأزهر وقف شيعي شرعي يجب أن يعود إلى أهله وأصحابه الحقيقيين، وعلى الآخرين إن أرادوا التدريس وفق معتقدهم أن يبنوا جامعات ومؤسسات خاصة بهم في أي مكان آخر بعيدًا عن هذا الوقف المغصوب.

دعوة لاستفتاءٍ الشعبي

ولو أُتيحت الفرصة للشعب المصري اليوم عبر استفتاء شعبي حر ونزيه، بعد تبصيره بالحقائق التاريخية المغمورة، لاختار دون تردد العودة إلى أحضان مذهب أهل البيت الطاهرين صيانة لدنياه وآخرته، وعزف عن التمسك بحكم أبي بكر وعمر وعائشة وصلاح الدين.

ومن أجل تحقيق هذه الغاية، فإننا نتقدم بمقترح علمي وإعلامي يتلخص في تخصيص فترة عام كامل في وسائل الإعلام الفضائية والمكتوبة داخل مصر لعقد المناظرات المفتوحة وبيان الحقائق، حيث يقوم علماء التشيع بتبيان دستور وقوانين حكم أهل البيت، وعدالته، وكيفية معاملة الرعية تحت ظله الوديع، وفي المقابل يُعرض الحكم الآخر وما اشتمل عليه تاريخه من القتل، والذبح، وسفك الدماء، والنهب، والسلب، والفساد، والبغاء، وللشعب المصري حينئذٍ

كامل الحرية والإرادة في الاختيار بين الحكم المحمدي العلوي الفاطمي، وبين الحكم البكري العمري الأيوبي.

وتتضح أسباب هذا التخوف الشديد من الفكر الشيعي والمد الرافضي في مواقف معاصرة عشناها؛ ففي مقابلة صحفية أجرتها معي إحدى الصحف المصرية، تبين أن مقص الرقيب في تلك الصحيفة قد بتر أجزاءً جوهرية من كلامي!

وكان من جملة ردود الأفعال الصاخبة في الإعلام البكري التحذير من خطورة تلك المقابلة، واعتبارها دليلًا على تخطيط الشيعة لغزو مصر فكريًا وثقافيًا. وهو ادعاء يثير السخرية؛ إذ إن التشيع متجذر في الوجدان المصري أساسًا، وبناءً على تصريحات موثقة للدكتور سعد الدين إبراهيم، مدير مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية، فإن الإحصاءات والتقديرات الواقعية تشير إلى وجود ما لا يقل عن خمسة ملايين مواطن شيعي داخل الديار المصرية(١).

إن هذا العدد الضخم. (خمسة ملايين) يمثل شعبًا كاملًا يفوق في عدده مواطني دول خليجية عدة كالكويت،

١ راجع ما نشرته عنه صحيفة الوفد المصرية مثلًا بتاريخ ٢٠/يناير/٢٠١٣؛ إذ ذكر سعد الدين خلال مؤتمر الأديان المنعقد بمركز مصر الفاطمية أن عدد الشيعة المصريين يبلغ ٥ ملايين. .

والبحرين، وقطر، والإمارات مجتمعة، بما تشمله تلك الدول من شيعة وبكريين.

وإذا كان مليونان فقط من المواطنين قد نجحوا في التجمع بميدان التحرير وإسقاط نظام حسني مبارك العاتي، فإن وجود خمسة ملايين شيعي في مصر كفيل -وفق المعطيات الديمقراطية- بإعادة الحكم الشيعي الفاطمي إلى مصر عبر شرعية صناديق الاقتراع والآليات الانتخابية التي يتشدق بها الخصوم دائمًا.

مقومات التحصين العقدي بين المذهبين

إن الخوف المستمر من الصوت الشيعي، ومحاولات منع ظهوره، وحظر التعبير عن عقيدته وقراءته للتاريخ، ومنع كتبه، وإغلاق مساجده وحسينياته في مصر، نابع في الأصل من شعور الخصوم بالضعف والتقزم الفكري أمام القامة الطويلة والمحاجة العلمية للتشيع؛ فالمدرسة الشيعية قد هزمتهم تاريخيًا وعلميًا في مواضع شتى. ولحل هذا الإشكال المعرفي، ندعوهم دائمًا إلى نقد الفكر بالفكر، والوقوف أمام الكاميرات في مناظرات علنية مباشرة ليرى

الجمهور المنصف من يملك الحجة والبرهان، لكنهم يهربون ويرفضون ذلك خشية انفضاح ضعفهم المعرفي.

ولقد وصل رعبهم من الفكر الشيعي إلى درجة إثارة أزمة وطنية كبرى في عهد محمد مرسي لمجرد فتح الباب أمام السياحة الإيرانية، حيث ضجت منابرهم بالدعاوى القائلة بأن هؤلاء السياح سينشرون التشيع ويهدمون التسنن في مصر، ورفعوا اللافتات وعقدوا الندوات الطارئة للتحذير من "الخطة الخمينية للتشيع" الزاعمة بسعي الشيعة للاستيلاء على الأمة الإسلامية، وهي خطة مزعومة ووهمية لا نعلم عنها شيئًا في أدبياتنا، وإنما هي من نسج خيالهم وتخرصاتهم، كأكذوبة "بروتوكولات حكماء الرافضة" التي يعوضون بها اهتزازهم الفكري وضياع مستمسكاتهم العقائدية.

وفي المقابل، لا نجد هذا الصراخ والعويل في الحواضر العلمية الشيعية؛ فنحن نرحب بجميع المخالفين والزوار في النجف الأشرف، لعلمنا اليقيني وتسلحنا بالمنطق الذي يجعلنا واثقين بأنهم لن يستطيعوا التأثير في عقيدة طفل شيعي واحد، نظرًا لامتلاكه التحصين العقدي القائم على

الدليل والبرهان؛ فالطفل الشيعي لو عُرضت عليه ملايين المغريات الدنياوية ليتولى عائشة أو يترك مذهبه، سيرفض ذلك متمسكًا بعقيدته. ويرجع هذا التحصين إلى أن المذهب الشيعي لا يتعامل بأسلوب "بيت الطاعة" أو التلقين الأعمى وفرض الآراء، بل إن المسألة الأولى في الرسائل العملية لجميع مراجع التقليد الأعلام في زماننا هذا، توجب على المكلف وجوبًا عينيًا ألا يأخذ بأصول الدين تقليدًا للآباء والأجداد، بل توجب عليه الاعتقاد بها عن طريق الدليل والبرهان العقلي والنقلي المستقل.

ونحن نشجع أبناءنا دائمًا على البحث، والمطالعة، والمعرفة، ليتيقنوا أنهم على الحق بالدليل، علمًا بأن معظم الشيعة عبر التاريخ تحول أجدادهم إلى التشيع عبر آلية البحث الحر؛ بل إن سلالات وعوائل شخصيات تاريخية كبرى كمالك الأشتر النخعي، وبعض ذراري الأئمة الأطهار أنفسهم، كانت في فترات تاريخية معينة على غير المذهب ثم استبصرت وتشيعت بناءً على الدليل.

إذ يذكر الإمام جعفر بن محمد الصادق -عليه السلام- في رواية عميقة تبيّن حجم التضحية والثبات، أنه:

ارتد الناس بعد قتل الحسين « عليه السلام » إلا ثلاثة : أبو خالد الكابلي ، ويحيى بن أم الطويل ، وجبير بن مطعم، ثم إن الناس لحقوا وكثروا » (١).

فتحول هؤلاء الثلاثة بفضل سلاح قوة المنطق -لا منطق القوة والبطش- إلى هذه الملايين الممتدة اليوم في مشارق الأرض ومغاربها.

وحين نوازن بين الخطاب الشيعي والخطاب البكري، نجد أن الخطاب الشيعي خطاب رصين يعتمد الأوراق البحثية، والهدوء، والانفتاح الثقافي، وقبول الرأي الآخر مهما بلغت حساسيته العلمية، بينما يرتكز الخطاب الآخر على التحريض، والتهديد بالذبح، والنحر، والفرم، والاقصاء، كما يظهر جليًا في أسلوب بعض إعلامييهم وصحفييهم من أمثال العرعور.

وهذه البهلوانيات والشتائم تثبت لأبنائهم قبل غيرهم أن مذهبهم مذهب ورقي هش لا يصمد أمام الحجج العقلية.

وحتى الرموز الذين حاولوا لسنوات إظهار رحابة الصدر والعلمية الكاذبة مثل يوسف القرضاوي، سقطت أقنعتهم وتعرّت حقيقتهم عندما استشعروا الخطر الحقيقي والمد

---

١ رجال الكشي ص ١٢٣

الشيعي الجارف المهدد لبقاء الملة البكرية، فبدأ يصرخ ويضج في مؤتمراته ومؤلفاته محذرًا من الشيعة، مما يؤكد عجز فكرهم عن المواجهة العلمية؛ فالطرح الشيعي يمثل مدرسة فكرية عملاقة عجز التاريخ بكامل سلطانه وأجهزته القمعية على مدار ١٤٠٠ سنة عن إيقاف مدها لأنها ببساطة تمثل إسلام الحق الحقيقي.

المواقف الموثقة لخيانة صلاح الدين لنور الدين زنكي

أولًا..

ما رواه ابن العديم في تاريخه

فعند العودة إلى استنطاق المعطيات التاريخية الموثقة في أمهات المصادر، نجد أن المؤرخ ابن العديم يذكر في تاريخه:

"وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال أمور الديار المصرية وأن شيعتها عزموا على الوثوب بها فلم يقبل نور الدين عذره وتغيّر عليه و عزم على الدخول على الديار المصرية!".

فتغيرت القلوب بينهما بعد صفاء وود، وعزم نور الدين زنكي عزمًا جازمًا على السير بجنوده ودخول مصر معتبرًا

تنصل صلاح الدين بمثابة العصيان الصريح للأوامر العسكرية الصادرة من السلطان الأعلى.

"فسمع الملك الناصر، فجمع أباه نجم الدين وخاله شهاب الدين، وتقي الدين عمر، وغيرهم من الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من حركة نور الدين واستشارهم، فلم يجبه أحد، فقام تقي الدين، وقال: إذا جاءنا قاتلناه".

فاقترح تقي الدين محاربته ومواجهته عسكريًا وصده عن دخول مصر، ووافقه على هذا الرأي الجريء بعض أهله الحاضرين.

"ووافقه غيره من أهله، فشتمهم نجم الدين أيوب والد الملك الناصر وأقعد تقي الدين".

فحين سمع نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) هذا الكلام، غضب شدًا وشتمهم شتمًا مقذعًا، وأقعد تقي الدين عمر عنوة قائلًا لصلاح الدين في مجلسه المشهود:

"أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك، ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، ووالله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا إلا أن نقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا! فإذا كنا نحن هكذا فما ظنك

بغيرنا من الأمراء والجنود؟ وكل من نراه عندك، فهو كذلك، وهذه البلاد لنور الدين، ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا، والرأي أن تكتب كتابًا مع نجاب وتقول له: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد، ولا حاجة إلى ذلك بل يرسل المولى نجابًا يضع في رقبتي منديلًا، ويأخذني إليك. وتفرقوا.

فأشار عليه بمكر سياسي أن يكتب كتابًا عاجلًا يرسله مع نجاب (بريد سريع) يظهر فيه الطاعة المطلقة، والاستعداد التام للتقييد والانصياع للأوامر لتجنب المواجهة العسكرية الكارثية.

وعندما انفض المجلس وخلا نجم الدين بابنه صلاح الدين منفردين، أنبه بعنف وعاتبه قائلًا:

"كيف فعلت مثل هذا؟ أما تعلم أن نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه إليه، وحينئذ لا نقوى به، وأما إذا بلغه طاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا من الأعداء، والأقدار بيد الله، ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته عليها حتى أمنعه أو أقتل"!

وهذا النص يكشف بوضوح عن حالة النفاق السياسي، والمكر، والمداهنة؛ إذ لا يوجد أي ولاء عقدي أو أخلاقي حقيقي لنور الدين زنكي، وإنما هو انصياع اضطراري لخلل الميزان العسكري وخوف على ضياع المكاسب الشخصية.

"ففعل ما أشار به عليه والده فترك نور الدين قصده، واشتغل بغيره"(١).

وفي موضع تاريخي آخر يثبت الخيانة يمضي ابن العديم فيقول:

"واتفق نور الدين وصلاح الدين على أن يصل كل واحد منهما من جهته، وتواعدا على يوم معلوم على أن يتفقا على قتال الفرنج، وأيهما سبق أقام للآخر منتظرًا، إلى أن يقدم عليه، فسبق صلاح الدين ووصل إلى الكرك وحصره. وسار نور الدين فوصل إلى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان فخاف صلاح الدين، واتفق رأيه ورأي أهله على العود إلى مصر لعلمهم بأنهما متى اجتمعا كان نور الدين قادرًا على أخذ مصر منه".

وهي خيانة عسكرية وسياسية واضحة لعهود الجهاد!

---

١ زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم ص٣٥٤.

"فعاد إلى مصر وأرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر، وأنه بلغه أنه مريض، ويخاف أن يحدث به حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم، ولم يكن مريضًا".

فاعتذر بحجة جديدة مغايرة تمامًا للحجة الأولى المتعلقة بالشيعة؛ حيث زعم في هذه المرة أن والده نجم الدين أيوب مريض طريح الفراش في مصر، وأنه يخاف حدوث وفاته فتخرج البلاد والديار المصرية عن أيديهم وتضطرب الأمور.

و يؤكد المؤرخ ابن العديم في تحقيقه أن والده نجم الدين لم يكن مريضًا قط في ذلك الوقت، مما يثبت كذب صلاح الدين الأيوبي وافتراءه؛ والكاذب والمفتري في الشريعة الإسلامية فاسق مشهود بفسقه، فكيف يقوم أهل الخلاف والجمهور بتبجيل هؤلاء الفسقة والكذابين ويجعلونهم في مصاف الأبطال والفاتحين؟

"وأرسل مع الفقيه عيسى من التحف والهدايا ما يجل عن الوصف، فجاء إليه فأعلمه برسالة صلاح الدين، فعظم

ذلك عليه ولم يظهر التأثر بذلك، وقال: حفظ مصر أهم عندنا(١).

ما وثقه ابن الأثير في "الكامل في التاريخ"

وتأكيدًا لحقيقة هذه الخيانة والانهزام النفسي والسياسي أمام السلطة، يذكر المؤرخ ابن الأثير في كتابه الشهير *الكامل في التاريخ* تحت العنوان الصريح: "ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطنا.."

يقول:

"في هذه السنة جرت أمور أوجبت أن تأثّر نور الدين من صلاح الدين، و لم يظهر ذلك. و كان سببه أنّ صلاح الدين يوسف بن أيّوب سار عن مصر في صفر من هذه السنة إلى بلاد الفرنج غازيا، و نازل حصن الشّوبك، و بينه و بين الكرك يوم، و حصره، و ضيّق على من به من الفرنج، و أدام القتال، و طلبوا الأمان و استمهلوه عشرة أيّام، فأجابهم إلى ذلك. فلمّا سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصدا بلاد الفرنج أيضا ليدخل إليها من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين: إن دخل نور الدين بلاد الفرنج، و هم

---

١ زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم ص٣٥٧.

على هذه الحال: أنت من جانب و نور الدين من جانب، ملكها، و متى زال الفرنج عن الطريق و أخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين، و إن جاء نور الدين إليك و أنت هاهنا، فلا بدّ لك من الاجتماع به، و حينئذ يكون هو المتحكّم فيك بما شاء، إن شاء تركك، و إن شاء عزلك، فقد لا تقدر على الامتناع عليه، و المصلحة الرجوع إلى مصر. فرحل عن الشّوبك عائدا إلى مصر، و لم يأخذه من الفرنج، و كتب إلى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصريّة لأمور بلغته عن بعض شيعته العلويّين، و أنّهم عازمون على الوثوب بها، فإنّه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلّف بها فيخرجوهم و تعود ممتنعة، و أطال الاعتذار، فلم يقبلها نور الدين منه، و تغيّر عليه و عزم على الدّخول إلى مصر و إخراجه عنها ظهر ذلك فسمع صلاح الدين الخبر، فجمع أهله، و فيهم أبوه نجم الدين أيّوب، و خاله شهاب الدين الحارميّ، و معهم سائر الأمراء، و أعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين و حركته إليه، و استشارهم..»"(١).

---

١ الكامل في التاريخ لابن الأثير ج١١ ص٣٧١.

ودار بينه وبين والده ما يشابه رواية ابن العديم السابقة في المكر والمداهنة.

ما نقله أبو شامة المقدسي في "الروضتين"

ويؤكد المصدر التاريخي الثالث وهو كتاب *الروضتين في أخبار الدولتين* للمؤرخ أبو شامة المقدسي هذه الحقيقة المرة؛ حيث يذكر صراحة:

"وكان نور الدين قد شرّع بتجهيز السير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين لأنه رأى منه فتورا في غزو الفرنج من ناحيته".

ويذكر أبو شامة بعبارة واضحة لا لبس فيها:

"وكان المانع لصلاح الدين من الغزو، الخوف من نور الدين، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه فكان يحتمي بهم عليه، ولايؤثر استئصالهم"(١).

فكان صلاح الدين يحتمي بوجود الصليبيين ويستبقيهم في مواقعهم، ويمنع استئصالهم العسكري ليتخذ منهم

---

١ الروضتين في أخبار الدولتين ج١ ص٥٨.

حاجزًا طبيعيًا يضمن له الاستقلال التام بحكم مصر بعيدًا عن سلطة نور الدين زنكي. وهذا يثبت للقاصي والداني أنه كان رجل سلطة، ومصلحة شخصية، وأنانية سياسية، ولم يكن يطلب في تحركاته رضا الله تعالى أو يضحي من أجل الإسلام والقدس كما يزعم الإعلام المزيف؛ إذ إن المضحي المخلص لا يهمه الكرسي أو المنصب، وكان بإمكانه الاندماج والذوبان تحت قيادة نور الدين زنكي في أي مسمى عسكري، لكنه فوت فرصة تاريخية نادرة للقضاء على الصليبيين واحتمى بوجود الأعداء ضد المسلمين، مما ينقض أسطورته ويدل على أن فتحه اللاحق للقدس إنما كان لطلب المجد الشخصي، وبسط السلطان، ونيل الحظوة الدنيوية والشهرة في التاريخ، وليس خالصًا لوجه الله تعالى.

مفاوضات صلح الرملة والتنازلات الجغرافية للصليبيين

وتتجلى هذه السياسة الخيانية بأقبح وأجلى صورها عند النظر الدقيق في الاتفاقيات السياسية والعسكرية التي اتبعها صلاح الدين الأيوبي بعد أن تمكن من انتزاع العديد من الأراضي والمدن المحصنة من يد الصليبيين؛ حيث قام برمي كل تلك التضحيات والمكتسبات، وأرجع تلك الأراضي

والمدن المحررة بدماء الجنود إليهم متنازلًا عنها في المفاوضات، ولم يستبقِ لنفسه وسلطانه سوى مدينة القدس لعائدها الإعلامي والديني، بينما سلمهم أرض فلسطين بأكملها بمفهوم وحدود ذلك الزمان.

ويؤكد هذه الحقيقة الجغرافية والتاريخية الصادمة الدكتور حسين مؤنس في كتابه المعتمد *أطلس تاريخ الإسلام*، حيث يذكر في سياق الحديث عن المفاوضات السياسية التي جرت بين صلاح الدين الأيوبي وقادة الحملة الصليبية ما نصه حرفيًا:

"ثم دخلوا في مفاوضات مع صلاح الدين انتهت بعقد صلح الرملة الذي نص على أن يترك صلاح الدين للصليبيين شريطًا من الساحل يمتد من صور إلى يافا، وبهذا العمل عادت مملكة بيت المقدس -النصرانية الصليبية- **التي كانت قد انتقلت إلى طرابلس إلى القوة من جديد بعد أن كانت قد انتهت، وتمكن ملوكها من استعادة الساحل حتى بيروت، وبذلك تكون معظم المكاسب التي حققها صلاح الدين، فيما عدا استعادته لبيت المقدس، قد ضاعت"**[1].

[1] أطلس تاريخ الإسلام الفصل الثاني عشر، ص٢٦٩.

صلاح الدين الأيوبي والخيانة العظمى

إن هذا التنازل الطوعي عن شريط ساحلي استراتيجي ممتد من صور في جنوب لبنان الحالي إلى يافا في فلسطين يعد في العرف السياسي والعسكري خيانة عظمى ومضيعة للمقدسات؛ فلو فرضنا جدليًا في عصرنا الحديث أن حاكمًا عربيًا -وليكن حسني مبارك مثلًا- قرر التنازل الرسمي عن كامل شبه جزيرة سيناء للصهاينة مقابل كف أيديهم عن بقية الأراضي المصرية والاعتراف بحكمه، لعده الشعب والتاريخ خائنًا خيانة مطلقة لا تغتفر.

واليوم، نجد أن جوهر الخلاف الفكري والسياسي بين حركة حماس من جهة، وبين منظمة التحرير وحركة فتح (من أمثال محمود عباس، ونبيل شعث، وسلام فياض) من جهة أخرى، يكمن في رفض حماس القاطع لحل الدولتين والقبول بحدود عام ١٩٦٧م، وتخوينهم المستمر لكل من يقبل بتقسيم أرض فلسطين التاريخية التي يعتقدون وجوب استردادها كامة من البحر إلى النهر دون تنازل عن شبر واحد.

وإذا كان هذا هو موقفهم التخويني الحاد من معاصريهم في السياسة، فلماذا يعمدون إلى تمجيد صلاح الدين الأيوبي ورفع ذكره وهو قد فعل ذات الأمر عينه بل بصورة أشد

تعاسة وأكثر وضوحًا؟ حيث وافق في صلح الرملة على تسليم أرض فلسطين الساحلية كلها مقابل الاحتفاظ بالقدس وحدها لاعتبارات دينية وسياسية تمنحه شارة مجد شخصي على صدره، مفرغًا في كافة المكتسبات العسكرية الجسيمة، ومُعيدًا للمملكة الصليبية روحها وقوتها بعد أن أشرفت على الفناء والزوال التام.

التشرذم الأيّوبي وتوطين اليهود في بيت المقدس

ولم يدم هذا الانتصار الجزئي المتمثل في استعادة القدس طويلًا حتى ضاعت المدينة ذاتها مجددًا على يد أسرته؛ حيث تشير الحقائق والوثائق الموثقة في المراجع التاريخية الناقدة -ومن أبرزها مؤلفات الباحث حسن الأمين في كتابه القيم *صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين*- إلى أن صلاح الدين الأيوبي قام قبيل وفاته بتقسيم البلاد الإسلامية الشاسعة إلى دويلات صغيرة ومقاطعات مجزأة، وأقطعها لأولاده وأخيه كأنها تركة عائلية وعقار شخصي يملكه، فمنح بلاد الشام لأحدهم، واليمن لآخر، ومصر لثالث.

وبعد وفاته وانقضاء عهده، نشبت الصراعات الدامية، والنزاعات العسكرية، والحروب البينية بين أبنائه وأبناء أخيه العادل، وكلهم ينتمون إلى ذات الأسرة الأيوبية، ووصل الأمر ببعضهم إلى التحالف العسكري والسياسي المخزي مع الصليبيين ضد إخوانهم وبني عمومتهم طمعًا في الاحتفاظ بعروشهم وإماراتهم الصغيرة، وكان الثمن المقبوض لقاء هذا التحالف والمساندة الصليبية هو التنازل وتسليم مدينة القدس مجددًا وبكل سهولة للصليبيين؛ حيث سلموا المدينة للأعداء ليظاهروا ويقووا أحدهم على الآخر في الحرب الأهلية الأيوبية.

وبناءً على هذه السلسلة من الأحداث، لم يجنِ المسلمون من ذلك النصر المزعوم والفتح المؤقت لبيت المقدس إلا العار، والدمار، والضياع في الفترات اللاحقة.

فضلًا عن كل ذلك، فإن صلاح الدين الأيوبي فور استيلائه على القدس وطرد الصليبيين منها، فتح الباب على مصراعيه لتوطين اليهود وإعادتهم إليها؛ حيث وفد كبير اليهود وحاخامهم الأكبر مع جماعته بتسهيل ورعاية مباشرة منه، وأسسوا معابدهم لممارسة طقوسهم العبادية بحرية كاملة،

ونال صلاح الدين جراء ذلك حظوة، وتقدرًا، وثراءً كبيرًا في الوجدان التاريخي اليهودي، بل إن بعض المؤرخين والباحثين اليهود يبالغون في احترامه إلى درجة ادعاء أنه ينتمي إليهم. وهي مخازٍ ووثائق تاريخية ثابتة وموجودة في الكتاب المذكور آنفًا، يكشف تصفحه ومطالعته عن صفحات سوداء من العار والوهم تحيط بهذه الشخصية التي جرى تضخيمها إعلاميًا وهي لا تستحق في ميزان النقد الأكاديمي أي احترام.

خاتمة

بناءً على ما تقدم بسطه واستعراضه من دراسة، وتحقيق، وموازنة علمية في الأوراق البحثية المخفية والمغمورة التي تناولناها بالبحث والتحليل، نصل إلى نتيجة تاريخية واضحة، ومنطقية، وحاسمة تجيب بشكل جلي عن السؤال الذي يُطرح دائمًا في الساحة الفكرية حول أسباب كراهية الشيعة الرافضة لشخصية صلاح الدين الأيوبي وعدم تبجيله.

إن الموقف الشيعي المعرفي يرتكز في جوهره على عدم الاغترار بالشعارات والانتصارات العسكرية الوهمية أو المؤقتة، ولا يرى في مجرد الانتصار في معركة معينة

كحطين، أو التوسع الجغرافي وبسط النفوذ مسوغًا كافيًا أو صكًا شرعيًا لإسباغ الشرعية التاريخية والدينية على شخصية ما، مع إغفال جرائمها، ومآسيها، وخياناتها، ونذالتها في الجوانب السياسية والعقائدية والأسرية الأخرى.

إن الشخصية الشيعية المتوازنة في نقدها للتاريخ تُخضع سائر الرموز والشخصيات لدراسة شاملة ومستوعبة تلحظ كافة الجوانب السياسية، والعقائدية، والأخلاقية، والإنسانية، وصولًا إلى إصدار حكم تاريخي صائب يتوافق تمامًا مع مقتضيات الشرع الحنيف، وحكم العقل المستقيم، والضمير الإنساني الحي.

لجنة حفظ ونشر آثار الشيخ ياسر الحبيب
تأسست: صفر الأحزان ١٤٤٥هـ
Committee for Preserving and Publishing the Works of Sheikh Yasser al-Habib

بين يديك أيها القارئ الكريم وثيقة تفتيشية خطيرة تقتحم حقل ألغام تاريخي، وتزيح الستار عن "القصة التي لم تُرْوَ".

فهذا الكتاب يجرّد يوسف بن أيوب -صلاح الدين الأيوبي- من هالات البطولات المصطنعة، ويعيد رصيد مواقفه إلى ميزان النقد الصارم المستند حصرًا إلى أمهات المصادر التاريخية العتيقة.